- ٥ -

المثـال والواقع

نشـــأت المملكة اللاتينية فى بيت المقـدس ، وضربت المستعمرات الفرنجية جذورهـا فى الأرض الممتدة من كليكيا الى البحر الأحمـــر ٠ وكشفت الغزوات الصليبية العنيفة على الأراضى الاسلامية عن أن الغرب قد جـاء لكى يستقر تحت سـماء الشرق ٠ ومع العقد الثانى من القرن الثانى عشر كانت المستوطنات الصليبية أمرا واقعا ، بيد أن شكل هذه المستوطنات لم يكن قد تحدد بعد ، كما أن استمرارها فى البقاء كان أمرا غير مضمون ٠ ومع نهاية الحملة الصليبية الأولى بدأ قادتها رحلة العودة الى أوطانهم وصحبوا معهم الجزء الأكبر من أولئك الذين نجوا من منجل المعارك الفتاك ٠ وبدأت المستعمرات الحديثة النشأة فى تكوين مؤسساتها السياسية وهيئاتها الاجتماعية ، على حين تم توجيه النظام الاقتصادى لخدمة حاجات المجتمع الجديد ٠

وخلال حصار القدس بدأت المثل والتوقعات صدامها بالواقع ، فقد بدأت المجادلات حول ما ينبغى عمله بعد الفتح الوشيك الحدوث بين طنين آلات الحصار وهدم الأسوار ، وأصوات الأحجار الطائرة فى ظل أسوار المدينة المحاصرة ٠ وقد ثار الجدل حول اذا ما كان ينبغى اختيار بطريرك للمـدينة قبـل انتخاب حاكم علمانى لـها على اعتبـار أن للقيم الروحيـة الأسبقية على الاعتبارات الدنيوية ؟ أم هل يجب عـدم انتخاب أحـد ، طالما أن غزو المدينة سوف يبعث ، بالتأكيد ، مملكة المسيح ويعجل بنزول أورشليم السماء على وادى الدموع هذا ؟ وتقرر تأجيل البت فى هـذا الموضوع ، ولكن بمجـــرد أن تم الاستيلاء على المدينـة ، وبعد احتفال

الجيش المنتصر بالقداس فى كنيسة القيامة ، كان لابد من الوصول الى حل المشكلة · وكان القرار بانتخاب جودفرى البولونى كمدافع عن المدينة وحام للقبر المقدس · ولم يكن بهذا ملكا ، كما أن حكمه ولقبه لم يكونا دائمين · وكان هذا هو التوفيق بين الآراء والآمال المتصارعة المتضاربة · فضلا عن أن الانتخاب ذاته كان بمثابة حجر الرحى فى ايديولوجية الحركة الصليبية · بيد أن هذه المثل الصليبية حين اصطدمت بالواقع بحقائقه ، شابتها بعض الأضرار · فعلى الرغم من الاشعاع المسيحانى الذى رافق ميلاد المملكة ، فقد تحددت أبعاد مستقبلها كدولة علمانية ، مثل أية دولة أخرى · وقد أدى الاعتراف بهذه الحقيقة بدوره الى تلاشى الاشعاع المسيحانى للحركة الصليبية · لقد قدر للقدس أن تظل أورشليم الأرض ، ولم يكن صهيون يعنى شيئا أكثر من مجرد تل فى جبال منطقة يهوذا ·

وفى اطار الوجود الأوربى على تراب الشرق ، ظهرت الى الوجود أربعة كيانات سياسية ، فقد كانت امارة الرها هى دولة الصليبيين فى أقصى الشمال فيما بين أعالى نهر دجلة والفرات ، وكانت أكثر مؤسسات الصليبيين غرابة ، فقد كان المسيحيون الشرقيون الذين يقطنون الرها متمسكين بهويتهم على الرغم من عزلتهم عن الامبراطورية البيزنطية وعن موجات الغزاة المتعاقبة من التركمان والأتراك ، فضلا عن الأرمن واليعاقبة الذين كانوا يشكلون غالبية السكان ، كما كان هناك أيضا السوريان والنساطرة وغيرهم من الجماعات المسيحية الصغيرة · وكان يحكم هذا الوجود المكثف لطوائف المسيحيين وطوائفهم بلدوين أخو جودفرى الذى أسس أسرة حاكمة على أرض العراق · فقد كان على امارة الرها ، وهى المقاطعة المسيحية الشرقية التى كان يحكمها الغرب اللاتينى وبها قطاعات من السكان المسلمين فى المدن وفى الريف ، أن تواجه المركزين الاسلاميين الكبيرين فى الموصل وبغداد باعتبارها حصن الصليبيين فى الشمال الشرقى ·

والى الغرب كانت تقع انطاكية ، وحدودها فى الغرب على الشاطىء السورى وميناءى سان سيمون (انطاكية) واللاذقية · وفى الشمال تحدها المقاطعات الأرمنية فى جبال طوروس · أما فى الشرق ، فكانت انطاكية تواجه المدن الاسلامية الكبرى حلب وحمص وحماة · وفى قمة توسعها بلغت الامارة أبواب هذه العواصم الاسلامية · وكان حكام حلب يجدون أنفسهم مضطرين بين الحين والحين الى دفع اتاوة لحكام انطاكية لكى يسمحوا لهم أن يستخدموا الطواحين التى تقع خارج أبواب العاصمة مباشرة · وقد حاول الصليبيون أن يحتفظوا برؤوس جسور عبر نهر العاصى ، ولكنهم كانوا يعتمدون اساسا على الاستحكامات الواقعة على شاطىء النهر · ولم تستطع امارة انطاكية أن تسيطر على أراض واسعة · ومن الناحية العملية كان نهر العاصى هو الحد الطبيعى الذى يفصل بين انطاكية وجيرانها المسلمين ·

ومن المستحيل معرفة ما اذا كان غالبية السكان من المسلمين أم من المسيحيين · ولكن يفترض أن المسيحيين الشرقيين كانوا يمثلون غالبية السكان · وكان مسيحيو انطاكية يدينون بثلاثة مذاهب دينية رئيسية هى : الكنيسة البيزنطية ، والكنيسة السورية التى كانت يونانية فى أدبها الكنسى ومذهبها ، على حين كان اتباعها يتحدثون اللغة العربية ، ثم الكنيسة المونوفيزيتية اليعقوبية التى كان تستخدم أدبا كنسيا سريانيا ، وتستخدم اللغة العربية فى الحياة اليومية · وكان بعض السكان المسلمون من العرب والأتراك وكان معظمهم ورثة السوريين الهلينيين الذين اعتنقوا الاسلام ، وكانوا يقطنون المدن أيضا ، ولكن المسلمين كانوا يسكنون الريف أساسا · وقد أضاف الصليبيون أنفسهم الى هذا المزيج القومى والدينى · وعندما أصبح بوهيموند أول حاكم لأنطاكية نال الاعتراف بكونها من أملاك النورمان الذين يحكمون جنوب ايطاليا وصقلية · وكان طبيعيا أثناء موجات الهجرة الأوربية اللاحقة

أن ينجذب النورمان فى جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية ، وأيضا النورمان فى فرنسا وانجلترا الى المقاطعة التى تحكمها أسرتهم الملكية الأصلية · ولم يكن النورمان هم العنصر الوحيد فى انطاكية ، لكن المؤكد أنهم كانوا يمثلون غالبية السكان الأوربيين ·

أما مقاطعة طرابلس اللبنانية ، التى كانت أصغر المستوطنات الصليبية ، فكانت تسمى حسب اسم المدينة العاصمة · وكانت تمتع بحدود آمنة مشتركة مع امارتين صليبيتين هما انطاكية فى الشمال ، والقدس فى الجنوب ، اذ كانت طرابلس تقع بين البحر فى الغرب ، وسلاسل لبنان الجبلية فى الشرق ، وكان أغلب سكانها من المسلمين ، كما كان جميع السكان الأصليين يتحدثون العربية · وكانت الطوائف المسيحية الشرقية ، ولا سيما اليعاقبة يشكلون جزءا هاما من سكان الولاية · كما كان الموارنة يمثلون الجماعة الدينية المتميزة · ذلك أن أولئك الفلاحين الذين اشتهروا بمهارتهم الفائقة فى استخدام القوس والسهم ، ظلوا يحافظون على عقيدة آبائهم ونظامهم الاجتماعى · وكان البروفنساليون هم الذين يحكمون مقاطعة طرابلس ، فقد أسس ريموند السانجيلى كونت تولوز ، وماركيز البروفانس ، أسرة حاكمة فى لبنان · وبهذا أصبحت لبنان تنتمى ، من حيث اللغة والعادات ، الى جنوب فرنسا وملجأ لأولئك القادمين من جبال البرينيس حتى حوض الرون الأدنى وقطالونيا ، واستقروا فى الشرق الأدنى المسيحى ·

وكانت مملكة القدس هى الكيان السياسى الرابع ، فقد كان اسم العاصمة المهيب يضفى على حاكمها لقب ملك ، كما كان يمنحه نوعا من الأفضلية والأمتياز بل وزعامة بقية الكيانات الصليبية · وكان آل بويون Bouillon فى حوض اللورين الأدنى يحكمون المملكة الى أن تزوج فلك Fulk كونت أنجو وريثة المملكة ، الملكة مليساندى وأسس أسرة انيفين Angevine الحاكمة · وقد حمل حاكم المملكة الأول

جودفرى البويونى لقب المدافـــع عن القبر المقدس ، ولكن أخاه وخليفته بلدوين الأول توج ملكا للقدس فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، مما ضيع حقه فى ميراث الملك داود · وفى جرأة أطلق بلدوين على نفســـه لقب « ملك آسيا ومصر » ، وهو لقب يدل على رغبة خبيثة · وهى رغبة كادت أن تتحقق على يد أحد خلفائه وهو الملك أمالريك·وعلى الرغم من أن ملوك بيت المقدس الصليبيين لم يصيروا حكاما على آسيا وأفريقيا مطلقا ، فان مملكتهم هى التى أحرزت أكبر قدر من التوســع بين الكيانات السياسية الغربية على أرض الشرق ·

وعند الحد الشـــمالى حيث تقع امارة طرابلس كانت المملكة تمتد بطول الساحل الفينيقى والسورى حتى الصحراء التى تفصـــل الأرض المقدسة عن سيناء · وكانت مدنها الســـاحلية عنوانا على مجد التاريخ القديم والكلاسيكى ، فها هى مدن بيروت وصيدا وصور وعكا وابولونيا (أرسوف) وقيصرية ويافا وعسقلان وغزة · وقد تطورت بعض المـدن وازدهرت لكونها أسواقا رئيسية للتجارة العالمية · وفى داخلية البلاد كانت حدود المملكة تخترق جبال لبنان حتى المياه الرئيسية فى الأردن · وكان ثمة خط وهمى يحـــدد الحدود الشرقية الشمالية فوق مرتفعات الجولان · ومن هنا تمتد الحدود حوالى ثلاثمائة ميل باتجـاه الجنوب حتى العقبة على البحر الأحمر ، ويدخل فى نطاقها اقليم شرق الأردن (جلعـاد وعمون ومواب القديمة) على الطرف الشرقى ·

وتتخذ المملكة شـــكل درع مستدير ذى قاعدة مدببة كالأســـفين المحشور بين مركزى القوة الاسلامية فى دمشـق العاصمة الســـورية الكبيرة التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة والتابعة للخلافة السنية فى بغداد ، وفى القاهرة العاصمة الفاطمية للخـلافة الشيعية فى مصر · وفى الجنوب وصل الصليبيون الى واحة العريش فى صحراء ســيناء ، كما توغلت جيوشهم حتى دلتا نهر النيل عدة مرات · ولكن حدود المملكة

استقرت بشـــكل نهائى فى الشرق والجنوب على طول حدود صـــحراء سوريا وشرق الأردن والنقب وســـيناء ، وكانت هـــذه حدودا طبيعية للمملكة ٠

وكان سكان مملكة بيت المقدس أكثر تنوعا من ســـكان المقاطعات الصليبية فى الشمال ٠ فقد احتفظت الأماكن المقدسة وتأثيرات المؤسسات الدينية بمقاطعات مسيحية يهودية سامرية يحيط بها السكان المسلمون ٠ ففى أماكن مثل القدس وبيت لحم والناصرة ، وجبل تبور زاد عدد السكان المسيحيين ، وربما كانت لهم السيطرة أيضـــا على غيرهم من عناصر السكان ٠ وينطبق هذا القول نفسه على بعض المناطق الزراعية حـــول القدس وفى الجليل ٠ كما كانت هنـــاك مستوطنات يهودية متناثرة فى منطقة الجليل الزراعية ، كما وجدت جماعات يهودية منظمة فى جميـــع المدن الرئيسية فى فلسطين وسوريا ٠ وكان الاقليم قد صار اسلاميا بعد أربعة قرون من الحكم الاسلامى ، وحتى مع عدم السيادة الكاملة للدين كانت اللغة العربية هى اللغة المشتركة للسكان بغض النظر عن دياناتهم ٠ وقد فشلت محاولة تمت قبل ذلك لكتابة اللغة اليونانية بحروف عربية ، ولكن العربية ظلت تكتب بحروف عبرية على مدى آلاف السنين على أيدى اليهود الشرقيين ٠

وفى القدس ، حيث الكيان الصليبى الذى قام فى أقصى الجنوب ، تنوع التركيب الاثنولوجى للعناصر الغربية عنه فى الشمال ٠ فقد كان لجاذبية الأماكن المقدسة الفضل فى توازن الميل الطبيعى للاستقرار بين أبناء الوطن ٠ وقد قدمت الأسرة الحاكمة ونواة السكان الأوربيين من شمال شرق ووسط فرنســـا ٠ ولكن موجات الهجرة اللاحقـــة قدمت بالبروفنساليين والأنجيين ٠ وكانت شوارع القدس فى القرن الثانى عشر، أو عكا فى القرن الثالث عشر عالما مصـــغر الأشـــكال والألوان لأوربا المعاصرة والشرق الأدنى المعاصر ٠ فقد احتك الفرنسيون ، وهم العنصر

الغالب ، بأبناء الجماعات القومية واللغوية الأخرى الذين كان يحيون فى أحياء أو شوارع خاصة بهم · ولم تكن فى الغالب أكثر من عدة منازل تجمعت حول كنيسة مكرسة لقديس مشهور بين أهل الوطن · وهكذا دبر كل من الاسبان والبروفنساليين والايطاليين والألمان والمجريين والبريطانيين مكانا لأنفسهم ·

وفى الوقت الذى كانت فيه الأغلبية العظمى فى مدينة مثل القدس ، بمؤساساتها الكنسية المتعددة ، من الغرب ، استقر عدد كبير من السكان الأصليين الذين جذبتهم المطامح الاقتصادية الى المدن الساحلية بعد الغزو الصليبى · ذلك أن المسلمين الذين هربوا أو طردوا أثناء حوادث الغزو ، عادوا ليستقروا فى كل مدن المملكة تقريبا باستثناء القدس · وحيثما كان المسلمون أقل ظهورا ، كان يوجد المسيحيون الشرقيون المتحدثون باللغة العربية ، والذين كانوا يرتدون الثياب العربية نفسها ونفس غطاء الرأس · اذ كان للأرمن الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح أحياؤهم الخاصة ، كما احتفظ الجورجيون واليعاقبة والأقباط والأثيوبيون بكنائسهم الخاصة· وتقابل البيزنطيون والسوريون مع الموارنة والنساطرة · كما وجد أيضا الدروز والبدو الذين كانوا يفدون الى الأسواق والمراكز التجارية لكى يقايضوا بمنتجاتهم الزراعية ، أو يعرضوا خدماتهم · وفيما عدا الجيوب السكانية المسيحية كان الريف مسلما ، وخاصة فى أقاليم يهوذا والسامرة والجليل التى كانت أقل جاذبية بالنسبة للغربيين من المدن الساحلية وحصونها ·

وقد اختفت المثل والتوقعات المسيحانية · ومع ذلك كان لايزال هناك أمل فى تدخل السماء · ولكن كل يوم يمر كان يفرض على الأقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعا جديدا فى سبيل البقاء · وكان لابد من اليقظة المستمرة ، والحذر من الهجوم الخارجى ، أو الثورة والتخريب فى الداخل · ولم يكن ثمة مجال للاختيار فى بداية الأمر ، فقد نظمت الدولة

والمجتمع من أجل الحرب ، واقتصرت قوة الملكية والأمراء على القادة العسكريين وعلى مدى جيل كامل كان القادة هم الذين يخوضون المعارك ، ويدافعون عن الحدود ، ويبنون الحصون ، ويصنعون السلام · وبعد هذا الاستقرار الوقتى ظهر النظام الحكومى من أرضية المعسكر الصـــليبى الموجه لخدمة أغراض الحرب ·

وكان بوســـع مملكة بيت المقدس أن تخوض الحرب بما يقرب من ستمائة فارس وعشرة أضعاف هذا العدد من المشاة · كما كانت انطاكية وطرابلس تستطيعان تجهيز العدد نفسه · وقد يبدو اليوم أن ألفا ومائتى فارس قوة ضعيفة ، ولكن فى العصور الوسطى كان للفارس المدرع نفس التأثير الذى تحدثه الدبابة الحديثة فى ميدان القتال · فقد وصل تنكرد ، مثلا ، الى دمشق بثمانين فارسا ، كما أن الملك أمالريك غزا مصر ومعه حوالى ثلاثمائة فارس فقط · وفى أوربا أيضا تم خوض المعارك الرئيسية آنذاك بأعداد مماثلة أو حتى بفرق أصغر من ذلك · فضلا عن أن القوات التابعة للرهبنات العسكرية كانت تخضع لأوامر المملكة · وقد كانت هذه النظم الرهبانية العسكرية قادرة على تنشئة جيش يضارع جيش المملكة نفسها من حيث القوة · وبطبيعة الحال ، كانت تصل آلاف الفرســـان الأوربيين ابان الحروب الصليبية الى شواطىء الشرق المسيحى ، مما زاد من القوة البشرية العسكرية المتاحة · وقد كانت الجيوش الصليبية لاتقهر فى المعارك التى أخذت أهبتها لها ، والحقيقة أنها نادرا ماهزمت فى هذه المعارك · ولكن الهزيمة ذاتها لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها عند أعدائهم · فقد كان لدى الأعداء احتياطى لا ينفد من القوة البشرية ، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم قســوة تعنى أكثر من مجـــرد معركة خاسرة ، يتلوها تقهقر الى قواعد آمنة بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية فى حلب ، ودمشـــق ، أو القاهرة · أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يعبئون كل قواتهم البشرية تقريبا فى حالات الهجوم الرئيسية ، فقد كانت

الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب ، بل حتى ضياع المملكة نفسها ، وهذا هو بالضبط ما حدث فى يوليو ١١٨٧ فى موقعة حطين عندما كان معنى الهزيمة هو فقدان المملكة ٠

فقد كان نجاح الغزو والامداد والدفاع يعتمد بشكل مباشر على موضوع القوة البشرية الهام ٠ وقد أظهرت هذه المشكلة ، أكثر من غيرها ، الفشل الأكبر للصليبيين كما برهنت على كونها السبب الجوهرى فى الافلاس المطلق للكيانات اللاتينية فى الشرق ٠ وعندما ترك قادة الحملة الصليبية الأولى الأرض المقدسة الى أرض الوطن كان الباقون الذين لم يرحلوا ، ومعهم زعماؤهم جودفرى ، وبوهيموند ، وريموند السانجيلى ، وبلدوين ، وتنكرد ينتظرون قدوم حملة صليبية جديدة ، وحدوث هجرة جماعية من أوربا لتقديم القوة البشرية اللازمة لاستكمال غزو الشرق الأدنى ٠ فقد كان لجاذبية الأرض المقدسة ، والتصور العظيم لقيام دولة دينية فى مهد دينها ، واغراء الشرق الغامض أثره فى اقتناع أولئك الذين بقوا فى الأرض المقدسة بأن الغرب لن يتخلى عنهم ٠ بيد أن توقعاتهم قد خابت ، ولذلك لأن حملة صليبية جردت سنة ١١٠١ كان مصيرها الضياع بين الرمال فى آسيا الصغرى ٠ وعلى الرغم من أن جيوش الحملتين الثانية والثالثة حاولت عبور آسيا الصغرى مرة ثانية ، فان هذه المحاولات انتهت الى كارثة وكرب عظيم ٠ وفى القرن الثانى عشر كانت الاتصالات البعيدة تتم عن طريق البحر ، أما نقل الاعداد الضخمة فيتطلب الطرق البرية ٠ وكان اقتصار الصليبيين على استخدام الطرق البحرية أمرا خطيرا ، اذ انه حد من امكانية الهجرة الجماعية لأن امكانيات النقل البحرى فى القرن الثانى عشر لم تكن لتحل محل النقل البرى فى أفضل أحوالها ٠

وكانت هناك صعوبات فنية كثيرة تعوق نمو الموارد البشرية للمملكة ٠ فبعد قيام الحملة الصليبية الأولى والهبة البشرية التى صحبتها ، لم تكن استجابات أوربا لتوسلات المملكة كافية للوفاء

باحتياجاتها · وبدلا من طوفان المستوطنين الجدد الذى كان متوقعا لم ترحل الى الشرق سوى جماعات هزيلة · ولم يأت بالآف الناس الى الشرق مـرة أخـرى سوى تلك الحمـلات الصليبية التى اعقبت الكوارث مثل سقوط الرها سنة ١١٤٦ ، وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ · ولكن لم يبق بالأرض المقدسـة سوى جزء صغير للغاية من الحشـود التى اشتركت فى الحمـلات الصليبية الكبيرة · فبمجرد أن كان الصليبيون الجدد يبرون بالقسـم الذى قطعوه على أنفسهم كانوا يتركون المملكة الى بلادهم الأوربية · وبعد احتلال بيت المقدس بستة شـهور فى سنة ١٠٩٩ لم يكن الصليبيون يشكلون أكثر من أحـد أحيـاء العاصـمة · وربما كانت النتائج الملموسة لاستمرار الهجرة أكثر وضوحا خـلال فترات السـلم النسبى التى كانت تسود فيما بين الحمـلات الصليبية الكبرى وليس ابانها · فبعد أربعة أجيال ، وأثناء معركة حطين سنة ١١٨٧ كان يعيش فى مملكة بيت المقدس حوالى مائة وعشرين ألفا من الصليبيين ، وكان هنـاك عـدد مماثل يعيش فى الامارات الصليبية الشمالية · وقد بلغ العدد الكلى للصليبيين فى الشرق حوالى ربع مليون نسمة ، ونظرا لأن فترة العصور الوسطى القصيرة بالفعل ، كانت أكثر قصرا فى الشرق نتيجة للمناخ والطعام وعدم التكيف ، وحالة الحرب والحصار الدائمـة ، فان موجات الهجرة لم تكن كافيـة لأن تجعل من المستوطنات الصليبية كيانات سياسية حية ·

كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس الى عدد أعدائهم . واحدا الى خمسة تقريبا وبينما يبرهن هذا التقييم الأحصـائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى فان هذا التقييم الاحصائى نفسه يبدو أكثر أهميـة عند النظر اليه من خـلال الاطـار الجغرافى السياسى للشـرق الأدنى ، حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب ، وانما كانوا يواجهون

ملايين المسلمين من النيل الى بلاد النهرين • ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لمدى أكثر من مائة وخمسين عاما • ذلك أن رابطة الدين المشترك واللغـــة والثقافة المشتركة لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وخوض التجربة • ذلك أن محاولات توحيد القوى الاسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين على سبيل المثال ، لم تكن تعمر طويلا بعد وفاة صاحبها • ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكى بيبرس العسكرية فى منتصف القرن الثالث عشر ، وذلك من خلال فرض الوحدة الصارمة ، ودنما رحمة •

ونظرا للتفوق العددى للمسلمين ، كان على الصليبيين أن يظلوا أقلية فى حالة حـــرب مستديمة • فقد أملى عليهم المنطق والحـــذر أن يتمركزوا فى مواقع قليلة محصنة • وصارت هـــذه هى الصفة المميزة للملكة الصليبية • وبينما كانوا فى بلادهم ، سيدا وخادما ، يعيشون فى الريف على الدوام اضطر اللاتين فى الشرق الى ان يعيشوا فى مدن وقلاع حصينة دونما استثناء • أما الاستيطان الصليبى بالريف فقد اتخذ شكل بيوت الضياع الحصينة التى تناثرت هنا وهناك ، ولكن بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة • ولكن القرى التى سكنها المهاجرون الغربيون كانت نادرة • كما أنها على أية حال لم تكن تخلو من وجود برج دفاعى الا اذا كانت واقعة فى ظل احدى القلاع •

ومن هذه المراكز الحصينة ، التى كانت مدنا فى العـــادة ، كان الصليبيون يحكمون البـــلاد • ولكى يكون وجـودهم محساسا وسيادتهم فعالة ، فانهم رصعوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة والممرات التى كانت تشبه نقاط المراقبة أو نقاط الشرطة • وصارت شبكة التحصينات الواسعة التى لم تشهدها المنطقة من قبل هى الشبكة الحاكمة للمملـكة ، فطالما كانت القـلاع والحصون والاسـتحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأرض المقدسة • بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها ودوريات الطرق قادرة على حفظ الأمن

فى الاقليم · وقد تجلت علامات واضـــحة تدل على قصـــور السيادة الصليبية بعد ثمانين عاما من تأسيس المملكة · فقد تحصن جماعة من المسلمين الذين اتخذوا دمشـــق قاعدة لهم فى أعلى جبـــال الجليل ، وفرضوا الضرائب على الســـكان المحليين دون مضـــايقة من جانب السلطات الصليبية · وحدث بمحض الصدفة أن استثار وجـــود كمائن أولئك الفدائيين أفراد أحد الجيوش الصليبية وهـــم يعملون فى تحصين احد الممرات الأردنية القريبة ، فدمروا مخابئهم ووضـــعوا بذلك نهاية لنشاطهم · وقد أدى هذا الحادث الى ضرورة أن تكون الدولة والمجتمع فى حالة حرب دائمة · لقد تمهلت القدس السماوية فى نزولها ، وصار السلام الأزلى حلما قاصرا على عالم النبوءات والأحلام البعيدة المنال · وكان على القدس الأرضية أن تحكم ويدافع عنها بوسائل واقعية على الرغم من كل ما كانت تعبر عنه من قيم روحانية ·

وقام النظام السياسى فى المملكة اللاتينية على أساس من النظام الاقطاعى وهو النظام الوحيد الذى كان يعرفه الغرب · وان كان قد تم تعديله لمواجهة الظروف المحلية والتحديات الخاصة ، واحتياجات البـــلاد المفتوحة · فقد كان الملوك والأمراء يمنحون الاقطاعات والضياع والقرى لاتباعهم عادة ، لكى يضمنوا لهم دخلا يمكنهم من القيـــام بواجباتهم العسكرية ، ويساعدهم على أن يحيوا حيـــاة تتناسب مع مكانتهم فى المجتمع · وكانت هذه الاقطاعيات قليلة فى بداية الأمر ، اذ لم يكن ممكنا ضمان ولاء الأفضال الاقطاعيين النبلاء عن طريق اقطاعات الأراضى ، وانما من خلال الدخل الذى كان يتيحه النظام المالى المتطور فى الشرق الأدنى ، فضلا عن أن تردد الملوك فى خلق قوى اقطاعية متنافسة قد أدى الى الحـــد من توزيع الاقطـــاعات · وكانت أول الاقطاعات هى الاملاك الملكية والأميرية التى كانت تشتمل على كل الأراضى المفتوحة حديثا · ولكن الاقطـــاعات برزت الى الوجود أخيرا ، كمـــا قامت الملكيات التى

ارتبطت بالأسر المحلية الحاكمة · وكانت هذه اقطاعات غير عادية لأن مركزها كان المدينة وليس القلعة · وهنا عدل الاقطاع الغربى نفسه وفقا للتراث الحضرى العريق فى الشرق ، حيث صارت المدينة هى المركز المالى والتشريعى والادارى للدولة الصليبية ، وكان على سيد المدينة أن يضمن وجود عدد من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى · وكانت حراسة القلاع والحفاظ على التحصينات فى الضياع جزءا من واجبات الحاكم العسكرية ·

وما أن تم التخلص من تأثير الايديولوجية الصليبية القديمة وآمالها المسيحانية ، واعتمادها على الحكومة الكنسية ، حتى سارت عملية تنظيم الأرض المفتوحة على الطريق الذى سار عليه الاقطاع الأوربى · ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من الاقتصاد المالى المتطور الذى جعل من الممكن خلق ملكية بيروقراطية يديرها موظفون رسميون ذوو روابت ثابتة ، وجيش يتقاضى أفراده أجورهم ، فان الصليبيين نظموا دولتهم وفقا للتقاليد التى جلبوها معهم من أوربا · وبعد جيل من المعاناة والشكوك ، كانت نتيجة تنظيم الحكومة على أسس اقطاعية أن انقسم الاقليم الى عدد من اقطاعات الأمراء والضياع التى تدين بالولاء لتاج بيت المقدس · ومع ذلك فان الخريطة الاقطاعية الجديدة لم تؤد مباشرة الى حدوث أى ضعف ملحوظ للسلطة المركزية · فقد كان الاعتماد على الحاكم ومكانته كقائد أعلى للجيوش كبيرا لدرجة كبحت جماح الاتجاهات المتباعدة عن مركز الحكم الرئيسى ، وهى اتجاهات متوارثة فى النظام الاقطاعى ·

لقد كان السادة الصليبيون الاقطاعيون والبارونات الصليبيون الأوائل أكثر نظاما وتدريبا من زملائهم الأوربيين · ولم يكن هذا نتيجة لحالة التوتر التى نجمت عن الطوارىء المستمرة فقط ، ولكنها كانت أيضا بمثابة التركيب الاجتماعى الخاص لأشراف الصليبيين ونبلائهم · ومع

بعض الاستثناءات القليلة ، فان أبناء الشريحة العليا من طبقة النبلاء قد عادوا أدراجهم الى أوربا بعد مشاركتهم فى الحملة الصليبية الأولى · فقد كانت المجموعة الأولى قد أخذت على نفسها قسما بالمشاركة فى الحملة الصليبية وتحرير القبر المقدس ولم تكن التزاماتهم الدينية تتعدى ذلك الحد · وعند نهاية رحلتهم كانت لهم حـرية العـــودة الى وطنهم · أما الآخرون ، الباحثون لأنفسهم عن السلطة والسيادة فى الشرق ، فقد خابت آمالهم ، وفضلوا العودة الى أوطانهم · والذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون الى الأسر الكبيرة فى اوساط النبلاء الأوربيين ، وانما كانوا فى الغالب من الفرسان الأدنى فى مراتبهم من بيوتات السادة الاقطاعيين الأوربيين · وقد سهل هذا من مهمة الحـكم ، اذ لم يكن ملك بيت المقدس يجابه أية معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من وجود المملكة ·

وبعد حوالى ثلاثين عاما صارت الخطوط العريضة للنظام الاقطاعى فى المملكة ثابتة مستقرة · وكانت الأملاك الملكية فى ذلك الوقت ماتزال أوسع ، ومن المؤكد أنها كانت أكثر ثراء ، من أكبر الاقطاعيات ، وربما من جميع الاقطاعيات مجتمعة · فقد كانت منطقة يهودا كلها تقريبا ، فيما بين حبرون [الخليل] فى الجنوب ، والسامرة القديمة حول نابلس فى الشمال داخلة فى نطاق الاملاك الملكية · وفى الوقت نفسه كان التاج سيدا على المدن البحرية الرئيسية الثلاث فى المملكة وهى يافا وعكا وصور ، فضلا عن العاصمة بيت المقدس · وفى مقابل الاملاك الملكية الواسعة كانت هناك كبار الاقطاعيات التى كان بعضها كبيرا جـدا مثل اقطاع الجليل ، واقطاع شرق الأردن ، ومقاطعة يافا (التى صارت امارة يافا ــ عسقلان فيما بعد وصارت من أمـــلاك الأسرة الحاكمة) · وكان بعضها الآخـر صغيرا بالقياس الى المستوى الأوربى · وكانت هذه تتمركز حول المدن الساحلية ، مثل صيدا وبيروت وحيفا وقيصرية وأرسوف ، أو حول المراكز الداخلية

مثل نابلس وحبرون والرملة وبيسان · ومن الغريب أن عدد الاقطاعيات الدينية كان ضئيلا للغاية على الرغم من الدوافع الدينية التى اذكت نيران الحروب الصليبية · ومن هذه الاقطاعيات الدينية كانت اللد (التى أطلق عليها اسم سان جورج فيما بعد) ، وبيت لحم والناصرة ، وكانت هذه الاقطاعيات صغيرة جدا فى حجمها · وكانت المدينة هى المركز المعتاد للاقطاعية ، بيد أنه كانت ثمة استثناءات لهذه القاعدة مثلا اقطـــاعية شرق الأردن التى كانت بمثابة دولة حاجزة بين أراضى الهلال وأراضى الصليب ، فقد كان لها قلعة مركزية · وكان مسكن السيد الاقطاعى فى قلعة المدينة ، أو بالقرب منها حيث يقيم أيضا الجهاز الحاكم العسكرى والادارى للاقطاعية · وكانت حامية المدينة تتمركز فى القلعة التى كانت تبنى فى الغالب قريبا من البوابة الرئيسية للمدينة كما كانت تضم موظفى الجمرك الذين كانوا يقومون بتحصيل الرســـوم على المنتجات والمواد الغذائية ·

وكانت الامارات الاقطاعية تنظم على نسق المملكة · فقد كانت محكمة الملك أو المحكمة العليا ، كما اطلق عليها الصليبيون ، هى النظام الرئيسى الذى قامت عليه الحكومة الملكية · فهنا كان الملك يقابل كبار الاقطاعيين ، ومن الناحية القانونية كان فرسان البيت الملكى والاتباع فى الأملاك الملكية هم كبار الاقطاعيين ، (وذلك لانهم كانوا أيضا أتباعا مباشرين للتـــاج) · وكانت المحكمة الملكية،شأنها شأن أية مملكة أخرى فىالعلم المسيحى ، محكمة قانونية فى المحل الأول مهتمتها ارساء العدالة بين أتباع التـــاج ، ومعالجة المشاكل الخاصة باقطاعاتهم ومسوغات الملكية (بالنسبة للضياع التى كان التاج يهبها على سبيل التشريف) ·والأهم من ذلك أن هذه المحكمة كانت هى المجلس الأعلى للحكم · ومع أنها مجلس استشارى أصلا ، فقد تحولت بالتدريج لتصبح العامل السياسى الحاسم فى المملكة · وعلى الرغم من أن اعضاءها كانوا يجتمعون بناء على أمر الملك ، وعلى الرغم من أن

الملك كان يستطيع أن يختار موضوع المناقشـــة ، فان أمور السياســـة الخارجية ، واعلان الحرب والســـلام ، واصدار أوامر التعبئة وفرض الضرائب الاستثنائية (غير الاقطاعية) ، كانت كلها أمورا خاضعة لمداولة المحكمة العليا ٠

وطالما كانت قوة التاج كبيرة كان رأيه حاســـما ٠ ولكن مع بداية القرن الثالث عشر ، حلت المحكمة العليا محل سلطة التاج المتهالكة ٠٠ وقد لعبت المحكمة العليا دورا هاما فى شئون الوراثة الملكية والصراع من حولـــها فى القرن الثـــانى عشر ، وأثناء القرن الثـــالث عشر ، كانت مسألة شرعية الوراثة ما تزال تشوبها ضبابية عدم الوضوح مما جعلها محـــلا للصراع مرة أخرى ٠ وتدخلت المحكمة العليا فى هـــذه المســـألة باقتدار ، مما جعلهـــا عنصر الســـلطة الهـــام فى المملكة ٠ فقد تفوقت بقدرتهـــا وبنائها على الفرع التنفيذى فى الحكومة (اذ كانت تضـــم كل من له مركز فى المـــلكة) ٠ وكانت الادارة المركـــزية ، التى تم تنظيمـــها عقب الغزو مباشرة ، انعكاسا للتراث الأوربى الذى يمتد بجذوره الى عصر شارلمان ، حين كان موظفو البيت الملكى موظفين فى الدولة أيضا ٠ وكانت وظائفهم تشمل عمدة القصر ، والكونستابل ، ورئيس الحجاب ، والمسئول عن الطعـــام والشراب فى القصر ، فضـــلا عن الأسقف الذى كان يقوم برئاسة قضـــاة محكمة البلاط ٠ واستمر هـــذا الاطار الأولى قائمـــا على مدى قرنين من الزمان دونما تغيير ملحوظ ٠ بيد أن الأمر نفسه يشـــهد على عـــدم أهمية هـــذه الوظائف ، كما يشـــهد على الروح المحافظة للمملكة ٠ ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الوظائف لم تكن محـــل صراع ، ذلك أن التاج كان قد عين من يشغلونهـــا من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة فى هـــذه الوظائف جزءا من تربيتهم فى الحياة السياسية والعامة ٠

وكانت الأهميـــة المتزايدة للمحكمة العليـــا مقرونة بتغييرات فى

تركيبها · فمنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان يسمح لكل أصحاب الاقطاعيات فى المملكة بالانضمام الى المحكمة العليا · وكان هذا يعنى ، من الناحية النظرية ، أن تضم كل النبلاء فى المملكة وأفصالهم ، وافضال افصالهم وفقا لتدرج السلم الاقطاعى · ومع القرن الثالث عشر ظهر فى المحكمة نواب لبعض الهيئات المتضامنة ، مثل القادة العسكريين ، والفيكونتات ، والقناصل · كما ظهر نواب من نمط جديد ، هم نواب الهيئات المتحدة مثل الجماعات الاخوانية (وكانت هذه فى الأصل جمعيات خيرية يرأسها قديس من الوطن ، وكان الانضمام اليها حقا للنبلاء وأبناء الطبقة الوسطى أحيانا على السواء · ثم حدث أن صارت نواة للحركات الثورية) وفى السنين الأخيرة من عمر المملكة كانت المحكمة العليا فى طريقها لأن تكون برلمانا للمملكة يجمع بين أصحاب الأملاك على اختلافهم ونواب الجمعيات ·

كانت محكمة السيد الاقطاعى التى تجمع أتباع الاقطاعية محكمة قانونية فى الأصل ، مثل المحكمة العليا ، كما كانت بمثابة مجلس استشارى للسيد الاقطاعى أيضا · وكان النظام التنفيذى فى الاقطاعية صورة من نظام التاج · بيد أن الاقطاعيات الكبيرة هى التى كانت قادرة على التباهى بأن لديها درجات وظيفية مشابهة لتلك التى لدى الدولة · وعادة ما كان لكل اقطاعية محكمة خاصة ، فضلا عن موظف أو اثنين لادارة مالية السيد الاقطاعى والبيت الحاكم · ولكن البناء السكانى للاقطاعيات الصليبية كان يختلف اختلافا جذريا عن النمط الأوربى المألوف لدى النبلاء الصليبيين · ذلك أن الصليبيين كانوا مضطرين للتعامل مع الفرسان وسكان المدن فى الكومونات التجارية الايطالية بدلا من النبلاء والأقنان الذين عرفهم المجتمع الأوربى ، وكان الجميع ينضوون تحت لواء الاطار الفرنجى العام · فضلا عن المسيحيين الشرقيين الذين كانت تضمهم حوالى ست طوائف ، بالاضافة الى

المسلمين واليهود والدروز والحشاشين والسامرة فى بعض أجزاء المنطقة ٠

لقد كان ذلك عالما غريبا ومثيرا ، ولم يكن فى تجارب الصليبيين السابقة ما يجعلهم على استعداد للتعامل معه ٠ وقد سلك الصليبيون أسهل طرق المقاومة ، ذلك أنهم ببساطة لم يخالطوا السكان الوطنيين على الصعيد الاجتماعى ، وتركوهم لنظامهم الحكومى ٠ وكان هذا قرارا حاسما لأنه كان يتطلب التخلى عن أى عمل تبشيرى واسع النطاق بين المسلمين أو المسيحيين الشرقيين ٠ وهكذا ، وعلى الرغم من أن الأرض المقدسة كانت تحت السيادة المسيحية ، فانها لم تصبح اطلاقا بلدا مسيحيا ، لأن غالبية السكان ظلوا من غير المسيحيين ٠ ومرة أخرى اصطدم الواقع بالمثال ، وأملى الواقع شروطه القاسية بالتسليم ٠ وكانت هناك فرصة لبناء الدولة المسيحية كما وجدت تحت سلطة البيزنطيين منذ ثلاثة قرون مضت ، وقبل أن تقهرها قوات فرسان البادية التى اندفعت فى سرعة من أعماق شبه الجزيرة العربية لتأسيس السيادة الاسلامية ٠ ولكن الصليبيين لم يستغلوا الفرصة ، لأن التحويل الى المسيحية لم يكن ابدا جزءا من برنامج الكيان الصليبى ٠ ولم تكن موجات الهجرة الأوربية تسمح بحلول الاستعماريين الأوربيين محل السكان الأصليين ٠

ومن ناحية أخرى ، كان مبدأ عدم التدخل ، الذى كان الى حد ما تقليدا لتراث النظام الاسلامى السابق ، يضمن استقلال الجماعات الدينية المتعددة ٠ ففى القرى كان التقاضى بين أعضاء الجماعات المختلفة يتم أمام سلطاتهم التقليدية ، علمانية كانت أم دينية ٠ وكانت هذه هى الحال فى مدن المملكة ، ولم يطبق التشريع الفرنجى سوى فى الحالات التى كانت تجمع بين الفرنجة وغير الفرنجة ، أو عندما يلجأ فرد من أبناء اقلية ما الى المحاكم الأجنبية ٠

وكان الصليبيون الأحرار أو سكان المدن يحتلون درجة أقل من درجة النبلاء والفرسان فى سلم الحكومة الصليبية · ومن خلال رتبتهم ودرجتهم تكونت فى بطء طبقة أشراف المدينة ، ولكنها كانت طبقة مختلفة عن شبيهتها فى المدن الأوربية فسكان المدن من الفرنجة لم يصبحوا أبدا سادة الاقتصاد الوطنى على نحو ما حدث لرفاقهم الأوربيين · ذلك أن أكثر المهن ربحا ، وهى التجارة الدولية ، صارت بالفعل حكرا على الايطاليين والبروفنساليين وأهل قطالونيا · أما طبقة الأشراف الصليبية فقد وصلت الى السلطة ، لا عن طريق النجاح الاقتصادى ، وانما من خلال القنوات الادارية · ففى كل مدينة ، ولا سيما فى عكا وبيت المقدس ، وصلت بعض الأسر الى السلطة فى حاشية البطريرك والملك والأسقف والسيد الاقطاعى الكبير · فقد كان أبناء هذه الأسر قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الملحقة بالأديرة والكنائس ، حيث لقنوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب · كما كانت لهم معرفة سطحية باللاتينية بحيث يمكنهم استكمال الحسابات والتقارير ، وكتابة مذكرة حول العقود التى كان موثق العقود الرسمى يتولى تحريرها · وكانوا ، وهم يحاولون الكتابة باللاتينية يدخلون تعبيرات فرنسية وايطالية فى سياق الكلمات اللاتينية ، كما انهم أجهزوا على النحو اللاتينى · ومع ذلك ، فانهم كانوا اكفاء · ومثلما فعل سادتهم من الأشراف وجدوا متنفسا ايجابيا منتجا لمواهبهم الادارية فى محاكم المملكة الخاصة بغير النبلاء ·

وقد صارت محكمة سكان المدن ومحلفوها ، نقطة الارتكاز لدى طبقة الأشراف ، كما صارت المحكمة نفسها مصدر السلطة فى المدينة بحيث كان المحلفون يتمتعون بأهمية كبيرة باعتبارهم الشريحة العليا بين الفرنجة غير النبلاء · ومع ظهور كفاءات المحكمة ارتقت مكانتهم بسرعة · وأصبحت محكمة سكان المدن ، التى كانت مكتبا للسجلات ،

بمثابة فرع للنظام التشريعى · وكانت هذه المحكمة الخاصة بسكان المدن واملاكهم وعقاراتهم تقوم بتسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين مثل البيع والتأجير والرهونات العقارية وأراضى المدينة والحدائق والآبار وغيرها · كما كانت تعرض على قضاة المحكمة القضايا الخاصة بالدعاوى والمنازعات · ومنذ شروق الشمس الى غروبها ، وعلى مدى ثلاثة أيام فى الاسبوع ، كان القضاة يجلسون للفصل فى الخصومات ، يحيط بهم الموثقون والكتبة والشمامسة · ويفد اليهم سكان المدينة الصليبية بمشاكلهم المختلفة من قضايا عقارية ، الى محاولات التهرب الضريبية والجمركية والسرقة والجنايات الكبرى · وقد جاء مراقب شرطة المدينة ، أو المحتسب الذى كان مسئولا عن الأعمال التجارية الشريفة فى الأسواق ، ومعه المجرمون ليعرض على المحكمة التهم الموجهة ضدهم · ومن هنا يأخذ المسئول عن السجن المحكوم عليهم للعقوبة البدنية أو الحبس · وفى بعض الحالات ، كان يتم تحديد تاريخ آخر للفصل بين المتنازعين ، أو يحدد موعد آخر للدفاع عن الحقيقة فى مبارزة بالسيوف ، كما كان مألوفا فى عرف سكان المدن ·

وبمرور الوقت وجد سيد المدينة أنه من الأفضل والأكثر فائدة أن يقتسم اختصاصاته الواسعة مع محكمة المدينة · فكانت المحكمة تقرر قوانين حظر التجول والأسعار ونظافة الشوارع ، ثم يقوم منادى المدينة بارتقاء حجر خاص ، وهو عادة بقايا عمود قديم كانوا يسمونه le bon ليعلن هذه القوانين على المواطنين المتجمعين · وقد أدى استمرار المثول أمام المحكمة الى ظهور فئة كبيرة من المحامين من سكان المدن ، كما حدث بين النبلاء الصليبيين ، ونظرا لمعرفتهم التى لم يكن أحد يشك فيها ، علت مكانتهم لدرجة أن النبلاء المتكبرين كانوا يطلبوا نصيحتهم ، بل وكانوا يدعونهم الى المحكمة الاقطاعية فى المملكة فى بعض الأحيان ·

والى جانب محكمة السيد الاقطاعية ، ومحكمة المدن كانت هناك محكمة السوق المنفصلة · وهى هيئة فرنجية سورية مختلطة تحكم فى المنازعات الصغيرة التى كانت تنشب فى السوق حيث كان المدعون والمتهمون أفرادا من جماعات مختلفة · وقبل تأسيس محكمة السوق كانت هناك محكمة سورية وطنية يرأسها الرئيس · ووفقا لما جاء فى بعض المصادر الصليبية طلب المسيحيون المحليون اشراف ملوك بيت المقدس الأوائل على هذه المحاكم ، ثم انتقلت بعض اختصاصاتها الى محكمة السوق بمرور الزمن · ولم يحدث هذا التطور فى القرى التى يقطنها المسيحيون الشرقيون والمسلمون ، اذ ظلت المحاكم الوطنية تواصل عملها ، وذلك لأن هذا التطور كان مرتبطا بحياة المدينة ·

وقد ظهرت مؤسسة جديدة هامة لمجابهة ظروف الحياة الجديدة ، وهى محكمة السلسلة · والاسم مشتق من السلسلة التى كانت تستخدم فى المدن الصليبية الساحلية كما يصفها الرحالة اليهودى الاسبانى الشهير بنيامين التطيلى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر :

« وصور مدينة رائعة ، وبها ميناء فى وسطها حيث تدخل السفن الى المدينة بين برجين ، وفى الليل يلقى أولئك الذين يجمعون الضرائب بالسلاسل الحديدية من برج الى برج بحيث لا يستطيع أى انسان أن يمر بقارب أو بأية وسيلة أخرى لسرقة السفن ليلا · » ·

وفى أوقات الحرب أيضا كانت تمد السلاسل بين الابراج السوداء لكى تمنع سفن العدو من دخول الميناء · وكانت محكمة السلسلة عبارة عن هيئة قانونية تخصصت فى القضايا البحرية · فقد كانت القضايا الخاصة بالنقل والملاحين وغرق السفن والقروض البحرية والشركات التجارية ، تتطلب معرفة متخصصة من جانب قادة السفن الذين كانوا عادة من أصحاب السفن أو التجار فى الوقت نفسه · وبعد أن توضح المحكمة القضية تبلغ نتائجها الى محكمة المدينة للحكم والتنفيذ ·

وكان تطـــور هـــذه المؤسسات جميعا بعيدا كل البعد عن آمال وتطلعات الحملة الصليبية الأولى ، بيد أنها كانت ضرورية للحفاظ على المملكة وحكومتها · وكان الملك يعتبر نفســـه خليفة الملك داود ، ولكنه لم يكن أكثر من حاكم لاحدى دول العالم المسيحى ·

وكان وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق يعتمد على أوربا ، ليس فقط من أجل الهجرة ، وانما من أجل العون المالى أيضـــا · وحقـــا وصلت اعداد من المهاجرين من أوربا الى الأرض المقدسة ، ولكم كانت هـــذه الهجرة مختلفة عن الجماهير العريضـــة التى جاءت فى ركاب الحملة الصليبية الأولى !! · اذ لم يكن دافعهم الأول دينيا خالصا ، بل ولم يكن مسيحانيا · فقد ذهب بعض الأوربيين الى الشرق ليتخلص من قيـــود العبودية والرق · على حين ذهب البعض الآخر رغبـــة فى أن يبدأ حياة جديدة فى أرض غير معروفة ، وبامكانيات هزيلة · لقـــد تلاشى المد المسيحانى الذى صحب الحملة الصليبية الأولى فى غمـــار النسيان وجر معه الاعتقاد فى تحقيق النبوءات القديمة واقتراب الحساب الأخير · لقد عاشت أوربا أعظم ساعات النهضة الروحانية ، ولكنها عادت الآن تستسلم للحياة الروتينية ومشاغل الحياة اليومية ·

وعلى الرغم من أن الهجرة الى الشرق صارت تعتمد على الدوافع الاجتماعية والاقتصـــادية ، فان أوربا كانت لاتزال تشـــعر بأن المملكة الصليبية البعيدة كانت أكثر من مجـــرد كيان سياسى آخـــر فى العالم المسيحى · لقد تولت هـــذه المملكة حماية الضريح المقدس ، كما تولت أيضا حماية الصـــورة الروحية التى أرادت أوربا أن تروجها لنفسها · لقد كانت المملكة الصليبية من خلق أسمى الأوقات التى عاشتها أوربا ، كمـــا كانت من خلق فرحة الســـمو فوق الصراعات الصغيرة التافهة والحروب التى تطحن برحاها الأخوة ، فضـــلا عن أنهـــا كانت تجسيدا لايمان أوربا وشعورها بعالمية دينهـــا · وطالما أن هـــذه العقائد ظلت

قوية كانت أوربا تعتبر نفسها قيمة على سليلتها الشـــابة (مملكة بيت المقدس) · وعلى مدى قرنين من الزمان كانت أوربا تهتم بالمملكة وترسل المهاجرين وتقدم المعونات المـالية لخـزائن الصليبيين الخـاوية دائمـا كما كانت تجهز وتجرد الحملات الجديدة على الشرق · وكان يقود هـذا السـلوك القوتان العالميتان المسيحيتان وهمـا الامبراطورية والبابوية اللتان كانتا زعيمتى العـــالم المسيحى على المستوى الدنيوى والمستوى الروحى · وكانت دعوى المملكة على أوربا المسيحية من القوة بحيث أن البابوية فرضت ضريبـة على رجال الدين والعلمانيين لمـدة جيلين لكى تضمن الموارد المالية اللازمة للصليبيين ومملكتهم · وقد سار ملوك أوربا وأمراؤها فى الطريق نفسه · فقد شعرت فرنســا وانجلترا النورماندية باقوى الروابط التى تصلها بالمملكة ، كما جاءت المساعدات من النرويج وصقلية وأســبانيا والمجر · وكان التأييد والعون مستمرين طالما كانت أوربا تعتبر أن مملكة بيت المقدس قطعة من لحمها وبعض دمائها ·

ومع ذلك ، فقد تغير هذا كله مع بداية القرن الثالث عشر ، حيث هبت رياح جديدة ، واستسلم مثال المسيحية العالميـة للممالك الاقطاعية النامية ، وبدأت الرؤية الجديدة تناهض غزو القوة بالارساليات السلمية · وبالتدريج بدأت أوربا تقطع صـلاتها العـاطفية بمستعمراتها الشرقية · ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى مثل ســان لويس (الملك لويس التـاسع) ، ولفترة وجيزة فقط · ولـكن الحركة كانت حينذاك تسير فى طريق نهايتها المحتومة ·

- ٦ -

الحيـاة فيمـا وراء البحـار

جلب النبلاء والفرسـان معهم من أوربا مفاهيم ومثل أسلوب حياة الأسـياد الاقطاعيين وأعادوا غرسها فى تربه البلاد المفتوحة حديثا · وقد واصلت أوربا الغربية الحيـاة تحت سـماء الشرق ، وضربت اللغـة والانماط والعـادات الفرنسية بجذورها فى تربة عالم البحر المتوسـط الشرقى ، وسرعان ما نما جيل ثان وثالث من أبناء الفاتحين الأصليين · وبالنسبة لهـذه الأجيـال الجديدة كانت كلمة « الوطن » تعنى الأرض المقدسة على حين كانت أوربا ـ الوطن القديم ـ مـكانا ترتبط به أصـول اسـلافهم البعيدة ، وكانت الأجيـال الجديدة سـلالة حديثة من الرجال والنساء اطلق عليهم اسم البولان Poulains وهو اسم يمكن ترجمته أو فهمه بمعنى « الأولاد » · وقد كانت حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها انعكاسا لأوربا ، ولفرنسـا على وجه التحديد · بيد أن بيئتهم ـ أى ظروف الحياة المادية وما يقابلونه يوميا فى الشارع والسوق ـ كانت عالم شرق البحر المتوسط · وهكذا ، فان سليل العائلة النبيلة ، أو حتى سـليل عائلة من الفرسـان ، كان يمر بنفس مراحل التربية والتعليم التى يمر بها أقرانه الأوربيون · فقد نشأ فى ظل تعاليم نفس الدين ولقن نفس مبادىء العقيدة ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية معتمدا على نفس الأساطير والقصص الدينى وروايات البطولة واشعار البلاط التى يتذوقهـا قرينه فى غرب أوربا · وهكذا برزت الى الوجود فرنسا ما وراء البحار ·

ومع ذلك فالفرنجى الذى ولد فى بلاد الشام لم يـكن أوربيا تماما ·

فالزيجات المختلطة بالسيدات الأرمنيات والبيزنطيات كانت أمرا شائعا فى أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة · ومن ثم فقد كان من المألوف تماما أن تكون أم أحدهم أو جدته أو خالته مسيحية شرقية·وتنسحب هذه الحقيقة أيضا على البيوت الملكية وبيوت الأمراء الصليبيين · واكنت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين ـ سواء من المسيحيين أو المسلمين ـ الذين كثرت أعدادهم فى جميع بيوت الفرنجة الأثرياء · أما أبناء الشرائح الدنيا من المجتمع الفرنجى ، سواء من الفرسان الصغار أو سكان المدن ، فغالبا ما كانوا يتزاوجون بالمسيحيات الشرقيات من نفس مستواهم الاجتماعى · ويعلق أحد كاتبى الحوليات من الصليبيين على الاحوال التى نتجت عن ذلك بقوله :

« ··· تأمل ، من فضلك ، واعتبر كيف نقل الرب فى أيامنا الغرب الى الشرق · لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين · وذلك الذى كان رومانيا أو فرنجيا قد أصبح الآن جليليا أو فلسطينيا · والذى كان مواطنا فى ريمس أو شارتر قد أصبح الآن من مواطنى صور أو انطاكية · لقد نسينا بالفعل اماكن مولدنا وأصبحت غير معروفة للكثيرين منا ، أو على الأقل انها أصبحت لا تذكر · ويملك البعض هنا بالفعل المنازل والخدم الذين ورثوهم عن ذويهم كما اتخذ البعض زوجات ليس من بنى جلدتهم فحسب ولكن من السوريين والأرمن أيضا بل ومن المسلمين الذين نالوا نعمة التعميد · كما أن البعض قد اتخذ لنفسه صهرا ، أو زوجة ابن ، أو زوج ابنة ، وهنا أيضا احفاد وحفيدات والبعض يزرع الكروم بينما يزرع البعض الآخر الحقول · ويستخدمون جميعا كلمات وتعبيرات من لغات مختلفة · وهذه اللغات ، التى أصبحت الآن شائعة ، أصبحت معروفة لدى الجنسين · كما ان العقيدة وجدت بين أولئك الذين كان آباؤهم غرباء ··· » ·

وهكذا اعتاد الفرنجى الشاب « البولان » منذ نعومة أظفاره على

مواجهة الغرب والتعايش معه فى الشرق ، فقد كان البيت أو القلعة التى يعيش بها فى المدينة بناء شرقيا كان فى العادة ملكا لأحد المسلمين قبل الغزو الصليبى ، وكان يختلف تماما عن الابنية والتحصينات الأوربية · فقد كان الخشب هو مادة البناء الأكثر شيوعا فى الغرب ، ولكنه لم يكن معروفا تقريبا فى الأرض المقدسة اذ كان الحجر هو مادة البناء الشائعة والمستخدمة فى كل من المدن والقرى · وعادة ما كانت تحمل من مكان لا يبعد من المدينة نفسها ، مثل الحجارة التى تقطع من منحدرات جبل الكرمل فى قيسارية والحجارة المعروفة باسم Chastel Pélerin اى الحاج الطاهر والتى كانت تقطع من المحاجر القريبة التى تسد طريق الكثبان الرملية المتحركة باتجاه الشرق أو الحجارة ذات اللون الوردى الجذاب التى تجلب بيت المقدس ·

وكان المنزل ذو الطابقين أو الثلاثة طوابق هو النمط الشائع فى المساكن · بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا وغالبا ما كانت أسقفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصير مكانا يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة · وفى الداخل ، كانت الحوائط السميكة تحفظ الدفء فى الشتاء ، حيث تهبط درجة الحرارة فى اماكن مثل بيت المقدس وصفد وجبال شرق عكا وفى طرابلس وانطاكية الى درجة التجمد · وفى الصيف ، كانت الحوائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها ، حتى أثناء وقت الخماسين اللافحة · كما كانت الأسقف شاهقة الارتفاع · وتضفى الاقواس الرقيقة مزيدا من الشعور بالارتفاع على المكان ؛ اذ كانت النوافذ الضيقة تحد من دخول الضوء والحرارة · ولم تكن النوافذ تغطى بالألواح الخشبية أو بجلد الرق ، وانما كانت تتألق بالزجاج المصنوع محليا · وكان الزجاج النقى الشفاف نادرا الى حد ما ، ولكن الزجاج الأزرق أو الأخضر والنصف

شفاف والذى يضم الفقاعات الهوائية كان كثيرا ما يستخدم ما لم يفضل المرء الزجاج المرسوم ٠

وعادة ما كانت واجهة الدور الأرضى فى المنازل الشرقية عبارة عن حائط صلد ليس فيه سوى المدخل ٠ وكانت نوافذ الطوابق العلوية تسمح بدخول بعض الضوء ٠ ولكن الفتحات الأساسية فى البيت كانت تطل على فنائه الداخلى ، حيث يوجد البئر عصب الحياة ، والذى يحفظ فيه ماء المطر٠أو فى بعض الأماكن كانت تحفره حفرة فى الأرض تتصل باحدى القنوات المائية الصناعية القديمة ٠ وفى بعض المناطق الريفية ، كما نعرف من خلال وصف أحد القصور الصليبية الرائعة فى بيروت ، تقام نافورة لترطيب الهواء ، وتسقط مياهها مرة أخرى فى بحيرة كسيت بالموزايكو ٠

وفى بعض المنازل ، كانت السلالم تبنى خارج المنزل بحيث تسمح بالصعود من الشارع الى كل طابق من طوابق المنزل ٠ وغالبا ما كانت منازل الأثرياء تحتوى على نوع من البناء الاضافى فى الخارج يتكون من الأقواس المغطاة بالقماش السميك لكى تحمى المدخل من الشمس والمطر كالمظلات الراقية فى مداخل فنادقنا الفاخرة ٠ وفى أعمدة الأقواس نقرت ثقوب لكى تربط فيها الخيول ٠

أما البيوت المكلفة فقد كانت مداخلها تزين بالموزايكو الذى يحمل بصمات الفن البيزنطى الاسلامى ، فضلا عن أن قطع السجاد الصغير وقطع النسيج والسجادات كانت تغطى الحوائط ٠ وكان الموزايكو يشكل جزءا أساسيا فى الزينة الداخلية ، وغالبا ما كان يعرض تصميمات هندسية الى جانب رسوم الزهور والحيوانات ٠ وفى المنازل الأكثر ثراء ، كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوتة ، أو على منظر عقود وأقواس ، وربما كانت الأقواس البسيطة تضاف الى الزينة ، وكان الاثاث

افخم بكثير من ذلك الموجود فى أوربا · ففى أفضل الاحوال كانت المناضد والكراسى وأرجل ورؤوس الأسرة من الخشب المحفور على هيئة العقود البارزة أو باقات صغيرة من الزهور ، أو رؤوس البشر أو الحيوانات · وغالبا ما كانت الكراسى تبدو على هيئة حرف × مستدير ، بينما كان الجزء العلوى من الكرسى يستخدم كمقعد بمسندين·ومع الكراسى توضع الحشايا المستطيلة والدائرية وقد غطيت بالحرير أو الديباج الذى ينتهى بشرابة من أجل مزيد من الراحة ، وربما كان عرق اللؤلؤ الذى برع فيه صناع بيت لحم يستخدم فى تزيين الاثاث · وفى بعض أعمال الموزايكو · وفى كل بيت من بيوت النبلاء ، وفى كل بنـاء كنسى ، كانت توجـد منضدة للكتابة على هيئة صندوق ولها كرسى خاص بهـا · وتتم الكتابة على السطح المائل ، على حين كانت زجاجات الحبر والألوان والريش وغيرها من أدوات النسخ تحفظ فى الرفوف السفلى للمنضدة ·

أما أدوات المطبخ والمائدة فكانت تختلف تبعا للطبقة الاجتماعية · وكان طهى الطعام يتم فى أوانى فخـارية كبيرة فى افران مفتوحة وتلك الأفران التى حفظها الزمن فى الأماكن التى احتلهـا الصليبيون عبـارة عن فتحات ضـخمة كان من الممكن شى اللحم فوقهـا أو تعليق القدور عليها · وتغطى الفتحات بنوع خاص من الاسياخ الحديدية التى تحمـل القدور وأوانى الطبخ · وكانت الملاعق والسكاكين هى أدوات المـائدة الرئيسية · وكان من المعتـاد أن تصنع الملاعق من الخشب بينما تصنع السـكاكين من الصلب أو الحديد ، وغالبا ما كان الواحد منهم يستخدم خنجرة كسكين للمائدة (وكانت للخناجر أحيانا مقابض مزينة من العاج أو الخشب المحفور ونصل من الصلب الهندى الشهير) ، على الرغم من ان الأدوات المعدنية غالبا ما كانت تستورد من أوربا · وفى بيوت النبلاء كان الصبية أو التابعون الصغار يقومون على خدمة المائدة ، وحين تستقبل الأسرة ضيوفا من أصـحاب المقـام الرفيع يقوم أبنـاء الأسرة الصغار

بهـــذا الواجب أحيانا · وتنقل شرائح اللحم على الخبز المستدير الذى يقوم مقام الأطباق ، وقد يوضع الخبز فى اطباق من الفخار تزينها غالبا الرسوم · وكان أكثر أنواع الطـــلاء شيوعا هو الذى يتكون من خلفية قاتمة اللون تغطيها رسومات هندسية من الطلاء البنى والاخضر والاصفر· وفى بعض الأحيان كانت هذه الرسوم عبارة عن رمـــوز مسيحية ـ مثل الصلبان والسمكة والاكاليل وتيجان الأساقفة ـ وكانت تستخدم أيضـــا رؤوس الحيوانات والكائنات الأسطورية وما شـــابه ذلك · أما الأطباق الأكثر فخامة فكانت تزينها رسوم الفرسان والخيالة فوق ظهور خيولهم ·

وكانت الأطباق المعدنية والكئوس تعد جزءا من زينة المنزل · فكان بعضها يخصص تماما للزينة مثل اطبـــاق النحاس الكبيرة المنقوشـــة بآيات من الكتاب المقدس وببعض مناظره وصوره · ويبدو ان هذه كانت تستورد من أروبا ولكن مثل هذه الآنية المستخدمة للزينة ، وفى الاحتفالات ، والآنية التى كانت تقدم عليها الوجبات للملك الصليبى فى المسجد الاقصى بعد التتويج ، لابد وانها كانت من المعـــادن الثمينة التى صممت ونقشت فى سوريا أو فلسطين·وكذلك شاع استخدام الاكواب والكئوس المعدنية وكان بعضها يطعم بالفضـــة على الطريقة العـــربية الشرقية المحببة · ولم تكن النقوش العربية التى تمجـــد الله لتقف حجر عثرة فى ســـبيل استخدام الصليبيين لها على الرغم من أنها قد تستخدم فى شرب الخمر (وهـــو ما لم يكن الفنانون الذين صنعوها يقصـــدونه بكل تأكيد) · وفى الوقت نفسه كانت الأكواب والكئوس المعدنية شائعة الاستخدام فى أوربا أيضا ، على حين لم تكن المصنوعات الزجاجية أكثر شيوعا فى الشرق · وهناك بعض الأمثلة على الأكواب الزجاجية التى تزينها الرســـوم والنقوش ، والتى يحتمل ان تكون قد صنعت فى صور ، وهى تكشف عن شكل ممتاز وزينة فائقة الجمال ·· ويحمل أحدها شعار صاحبها مما يرجح ان تلك كانت عادة شائعة ·

وكان البيت الشرقى وزينته الداخلية يجدان التكملة لهما فى ألوان الطهى · وأياما كانت تقاليد فن الطهى المجلوبة من أوربا ، فقد كان من العسير عليها أن تنافس قائمة الأطعمة المحلية · ولم تكن الوان الطهى الشرقية تتلاءم مع المناخ السائد فحسب ، ولكن التوابل المشهية واستخدامها فى اللحم والأسماك ، والصلصة ، كانت تجعل من السهل على الأطعمة أن تحوز السبق على الأطباق الكثيرة والبسيطة المعروفة فى أوربا ·أما الخدم الشرقيون ، مثلهم مثل الباعة فى الشوارع والأسواق ، فلم يجدوا صعوبة فى تقديم فنونهم لكل من أبناء البيوتات النبيلة والعادية على السواء · بل اننا نعرف بعض قدامى الصليبيين الذين كانوا يتباهون بأطعمتهم المصرية مثلما يتفاخر المرء حاليا بأن لديه طاهيا يحمل الوشاح الأزرق ·

وقد تركت الموضة والملابس تأثيرها أيضا على المجتمع الصليبى ، ولكن الفرنجة جددوا فى هذا المجال ما اتخذوه من أزياء وملابس · وكان الفرنجى مستعدا للاستفادة من ميزة المنسوجات الراقية التى عرفها الشرق الأدنى أو الاقصى · والمنسوجات التى لم تكن متوفرة فى أوربا سوى فى بيوت الملوك والأمراء أو التى تظهر بين الآونة والأخرى فى الاحتفالات الكنسية ، كانت فى متناول الناس جميعا حتى محدودى الدخل منهم فى الشرق ، فالحرير والتفتاه والقصب والقطن والصوف والشاش كانت تنسيج بأيدى الفرنجة ونسائهم ولكنهم كانوا يقاومون الطرز الشرقية · وكان من الممكن لهمأن يرتدوا الأقمشة الشرقية ، الا أن تفصيل الملابس ظل أوربيا فلم يكن الفرنجى يرتدى عباءة شرقية أبدا ، أو على الأقل لا يرتديها أمام الملأ · وقد يضع فى بعض الأحيان شالا صغيرة أو طرحة على خوذته لتحميه من أشعة الشمس القوية · وقد يستخدم عباءه بيضاء كما يفعل الشرقيون وأعضاء المنظمات العسكرية ولكن ملابسه كانت أوربية فى أساسها · وكانت تتغير تبعا للطرز الأوربية · وكان الفرنجة

يستوردون من أوربا قطع الملابس التى لا يمكن الحصول عليها من داخل المملكة مثل أغطية الرأس · ومضى احساس الصليبى بهويته الجنسية بعيدا لدرجة انهم كانوا يمنعون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز · وهذا التمسك بالعادات الفرنجية عبر عن نفسه أيضا فى مقاومة العادة الشرقية فى اطلاق الذقون · فبينما كان المشتركون فى الحملة الصليبية الأولى ملتحين ، كما كانت العادة فى بلادهم آنذاك ، فان الفرنجة فى الأرض المقدسة تابعوا موضة حلق الذقون التى سادت أوربا بعد جيلين (فى منتصف القرن الثانى عشر) · وصارت وجوههم بالذقون الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لذم كما كانت موضع احتقار الشرقيين وامتعاضهم ·

وكان للمناخ والبيئة تأثيرهما فى مجال الصحة والتجميل · فقد وصف أحد مؤرخى القرن التاسع عشر أوربا العصور الوسطى بانها مجتمع نسى ان يستحم لمدة ألف سنة · وهذا الوصف لم يكن ينطبق على الفرنجة فى الشرق بالتأكيد ، اذ كان الصابون ينتج محليا ، وربما كان يصدر الى الخارج أيضا · وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة « الرفاهية » عليهم ، اذ أشار برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux الزاهد فى فخر بأن الداوية الذين يتمتعون بعطفه وحمايته لا يستخدمون الحمام اطلاقا ! وبعدها بخمسين عاما كتب جيمس الفيترى James de Vitry أسقف عكا منددا بهذه البذاءات التى تحدث بين سيدات الطبقة الراقية فى المجتمع الصليبى · فقد كان الجنوية يسمحون حتى بالاستحمام العام فى البالنيوم balneum فى عكا (على الرغم من عدم اختلاط الجنسين) · وأيا ما كانت العادة ، فان الأوربيين الذين كانوا يزورون المملكة كانوا يعودون الى أوربا بانطباع ان مجتمعا مخنثا قد خلف أبطال الحملة الصليبية الأولى ، الذين كانوا قد أصبحوا آنذاك قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها ·

واليوم ، قد يصف المرء مثل هذا التصرف بالدهاء أو المكر أو الواقعية ، ولكن الأمر كان يختلف أمام ناظرى القادم من أوربا حديثا · وقد كان جيمس الفيترى عنيفا الى حد ما فى ادانته اذ يقول : « لقد تربوا فى العز ، ناعمين ومخنثين وهم فى الثياب الناعمة » · وتحت اليد الثقيلة للقسيس الغاضب يمكن للمرء أن يرصد أسلوب حياة وصفه مراقب معاصر ساخط ، بأنه أسلوب حياة شرق البحر المتوسط :

« وهكذا تعلموا ان يخفوا ما يعنونه فى كلمات ماكرة ، تغطيها الأوراق ولكنها لا تحمل ثمارا مثل اشجار الصفصاف العاقر ، لدرجة ان اولئك الذين لا يعرفونهم معرفة كاملة من خلال التجربة لا يمكن أن يفهموا تحفظاتهم وحيلهم الكلامية ، أو يتجنب الوقوع فى شراك خداعهم· انهم شكاكون غيورون على زوجاتهم اللاتى يحبسونهن ويراقبونهن بطريقة صارمة وواعية بحيث ان اخوتهن واقاربهن يكادون لا يقتربون منهن ، على حين يمنعونهن كثيرا من ارتياد الكنائس وحضور القداس والصلوات والتبشير بكلمة الرب وغيرها من المسائل المتعلقة بخلاصهن لدرجة انهم نادرا ما يسمحون لهن بالذهاب الى الكنيسة مرة كل عام ، وبالرغم مما سبق ذكره فان بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالخروج الى الحمام ثلاث مرات أسبوعيا فى رقابة مشددة » · وبالنسبة للمرأة يقول : « ولكن كلما شدو البولان على زوجاتهم زادت محاولاتهن بآلاف الطرق والحيل للخروج من هذا التضييق · فانهن تعلمن أساليب الشر التى لا يمكن احصاؤها بشكل يصعب تصديقه ، وهى أساليب تعلمنها من النساء السوريات » ·

وعلى الرغم من الحرب الدائرة بشكل يكاد يكون مستمرا مع تتابع الزمن فان أطايب الأرض المقدسة ونعمها جعلت الحياة أقل قسوة وفظاظة مما كانت عليه تحت السماء الرمادية فى شمال أوربا ، فالملابس والمنازل والمقابلات فى الشارع أو فى السوق والثرثرة فى الشؤون

السياسية داخـــل الحمامات كلهـــا تعيد الى الأذهان ذكرى المـــدن الهللينستية · والفارس الفرنجى الذى ينمو ويترعرع فى مثـــل هـــذا الوســـط ، على الرغم من كلامه وملابســـه لم يكن فرنسيا ، وانما هو فرنجى من الشرق الأدنى · ولا يستطيع المرء أن يتهمهم بسهولة بالجبن فقد كانوا محاربين اكفاء · وبينما لم يكن الصليبيون فى القرن الثالث عشر دبلوماسيين مهرة على الدوام الا أن النبـــلاء منهم كانوا يولدون سياسيين ويرغبون فى ان يكون لهم اصـــبع فى كل مؤامرة أو دسيسة سياسية · شأنهم فى ذلك شأن ايطاليى عصر النهضة فى مدنهم الدول · city-states

ونادرا ما كان الفرنجى النبيل يعيش فى الريف · بل ان النبـــلاء القلائل الذين كانت لهم حصـــون يستخدمونها كمراكز للضياع ، عادة ما كانوا يحتفظون بمنزل فى المدينة (عادة فى بيت المقدس ، وفى القرن الثالث عشر فى عكا أو صور) وقليل جدا من النبلاء كانوا يعيشـــون فى ضيعاتهم · وذلك لأنهم كانوا أساسا فئة من المـــلاك الذين يجمعون الدخل من ضياعهم الريفية وينفقونها فى أماكن اقامتهم الحضرية · اذ كان الريف وقراه بالنسبة لهم مكانا يعيش الانسان خارجه ويشرف عليه ولكنه نادرا ما يقطن فيه·أما العلاقة بين الاقطاعى وحائز الأرض ، أو بين الاقطاعى والقن ، التى عرفتها أوربا العصـــور الوســـطى ، فلم تكن موجودة فى الشرق تقـــريبا · وكان ناظر الضيعة أو من يمـــاثله فى وظيفته كالـــكاتب يقـــوم بالاشراف على ايجارات القرية ، على الرغم من أنه نادرا ما كان يتدخل فى العمل الزراعى نفســـه · ولم يكن النبيل الصليبى يقدم على الزراعة والفلاحة لحسابه ، بل نادرا ما كان يحتفظ بأرض عقار · وعادة ما كان يرضى بثلث أو ربع محاصيل القرية ، التى عادة ما كانت تدعمها الدخول الناتجة عن الضرائب المفروضة على سكان المدن · والحقيقة ، أن زيارة النبيل الصليبى لأملاكه الريفية كانت نادرة اذ كان الواحد منهم

يخرج الى الريف للقنص أو صيد الأسماك ونادرا ما كان يخرج لأعمال اقتصادية · فقد كانت مظاهر حيـــاة الريف ، دون تحمـــل أعبائها ، موجودة فى البساتين الجميلة والكروم ومزارع الزيتون التى كانت تحيط بجميع المدن ، وكان بعض النبلاء يحتفظون بنوع من الاكواخ أو ما يشبه ذلك فى هذه « الضواحى » حيث يقضون أيام الصيف الحارة والأمسيات الأقل حرارة فى رفقة أبناء طبقتهم ، وكان بعضهم أحيانا من طبقة النبلاء المسلمين · ومن هذا المكان قد يخرجون لمطاردة أحـد الثعالب أو خنزير برى أو يصيدون بالصقور · وكانوا يقضون شطرا كبيرا من وقتهم فى ركوب الخيل وفى التدريبات العسكرية · وكان النبـلاء الصليبيون مثل أقرانهم المسلمين يتباهون على بعضهم البعض ويتفاخرون بجمال خيولهم اذ كانوا ينفقون مبالغ طائلة فى سبيل اقتناء الخيول وتجهيزها بالسروج وأفخر الثياب وبالأدوات الغالية والمعـــادن النفيسة · وكانت الأراضى الفضـــاء حول المدن تستخدم كمكان لاستعراض الخيل والخيالة · وفى فترات الســلم ، كان المسلمون يشاركون فى هـــذه التدريبات · وكانت المباريات هى المجد الذى يتوج النبيل الفارس ، وهى معارك وهمية يقوم بها النبلاء أو الأبطـال الأفراد ، وفى مثل هـــذه المناسبات كانت السيدات تظهر فى ميادين المدينة أو القلعة للمشاركة فى هـذه العروض التى تعـد من أكثر العروض تشويقا واثارة فى العصـــور الوسطى · وهنا يمكن للتابع الاقطـــاعى الصغير أو الفارس المحنك ان يحصـــل على المكافأة والشهرة لقاء شجاعته ومهارته العسكرية اذ كانت الخيول والأســـلحة والدروع المملوكة للخاسر ، وهى غالبا ذات قيمة مرتفعـة ، تصبح من أملاك الفائز · ومع ذلك ، فانه يبدو أن تلك المباريات ، التى كانت ترتبط غالبا بالأعيـاد ، كانت أقـل فى الشرق الصليبى منها فى أوربا فى ذلك الوقت · وربما يكون السبب فى ذلك هو أن المعارك الوهميـــة تكثر فى مجتمع تخلص من الحرب لتصبح ظاهرة شـبه يومية حيث كان الواقع

القاسى يغذى الدافع الى القيام بهذه العروض التى كانت غاية فى القوة فى أوربا على الرغم من التحريم الكنسى لها ٠

وكان الشطر الأعظم من وقت النبيل أو الفارس يقضى فى المدينة ، مكان اقامته المعتاد ، وكان وقت صغار الفرسان ينظم وفقا لواجبات كل منهم فى الخدمة فى حامية المدينة كحراسة قلعتها ، والطواف على الأسوار والابراج وحراسة قصر السيد ، أما النبلاء الأعلى رتبة فكانوا يقضون جزءا كبيرا من وقتهم فى مجالسة سيدهم الأعلى ، وغالبا ما كانوا يجلسون فى بلاطه كمستشارين أو قضاة ، وكمستشارين كان عليهم أن يقدموا المشورة فى المسائل التى تطرح عليهم لمناقشتها ، وكقضاة ، كان عليهم انجاز الالتزامات الاقطاعية التى تحكم نظراءهم ٠

وثمة مقالة صغيرة عنوانها « فى العصور الأربعة للرجال » كتبها أحد الفرنجة فى منتصف القرن الثالث عشر وتصف الوظائف التى تناسب كل عصر ٠ وتعطينا هذه المقالة انطباعا بأن الفرنجة فى الشرق كانوا يكونون مجتمعا نبيلا متدينا ٠ ومن سوء الحظ أن هذه الصورة تصطدم اصطداما عنيفا بالمصادر الأخرى ـ على الرغم من الأصول الكنسية ـ التى تقدم لنا رواية مختلفة تماما عن سلوك النبلاء ٠ وأيا ما كانت الحقيقة ، وسواء كان الواحد منهم يحضر القداس اليومى أو لا يحضره ، فليس هناك شك فى أنه كان على النبيل ان يشارك فى احتفالات الكنيسة والتى كانت فى مدينة مثل بيت المقدس لا تثير المشاعر الدينية فحسب ، وانما كانت مظاهر للروعة والفخامة لكل من المشاركين والمتفرجين ٠

وبالنسبة لوسائل التسلية والعلاقات الاجتماعية الأخرى ، كان المرء يلتقى بأصدقائه فى المنزل ، أو فى الحمام ، أو حتى فى احدى الحانات ٠ وكان الشطرنج ـ لعبة الملوك ـ معروفا ، ولكن النرد كانت التسلية الأكثر شيوعا ، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته ٠ وكانت

الوجبات الغذائية والشراب ـ الشراب حتى الثمالة ـ جزءا لا يتجزأ من التسلية ، كما كانت حانات كثيرة وبعض المنازل الخاصة تحتفظ بعدد من المومسات على الطراز الغربى أو بعدد من الفتيات الشرقيات الراقصات ، وكن أحيانا من الاماء أو الجوارى الشرقيات · أما الدعارة التى كانت مهنة شائعة فى كل مدن العصور الوسطى ، وأكثر شيوعا فى الموانىء ، فقد كانت مكلفة للغاية فى مدينة ساحلية مثل عكا ، حيث كان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأخير المنازل للمومسات · ولدينا وصف حى لهذه المدينة مسجله قلم جيمس الفيترى الذى شغل أسقفية عكا لبعض الوقت :

« لا يكاد يوجد بين « البولان » واحد فى كل ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد · فهم لا يعتبرون الزنا خطيئة قاتلة · فمنذ الطفولة وهم مدللون ومستسلمون للملذات الحسية حيث لا يتعودون على سماع عمل الرب ، الذى يستخفون به · وقد وجدت هنا أجانب هربوا فى يأس من أوطانهم بسبب العديد من الخطايا الفظيعة ، وهؤلاء الناس ، الذين لا يخشون الله ، يفسدون المدينة بأسرها بأعمالهم الدينئة · ونماذجهم الخبيثة ·

« وفى كل ليلة وكل يوم تقريبا يقتل اناس سرا أو جهرا · ففى الليل يخنق الرجال زوجاتهم اذا كانوا يكرهونهن ، على حين تستخدم النساء فن السم القديم والشراب السحرى لقتل الأزواج حتى يستطعن الاقتران برجال آخرين · وهناك فى المدينة باعة للسموم حتى انه لا يمكن لأحد ان يثق فى أحد فأعداء الانسان هم أهل بيته » ·

« وتعج المدينة ببيوت الدعارة ولأن المومسات يدفعن أعلى الايجارات فلهذا أنه ليس فقط المدنيين فحسب ولكن القسوس بل وحتى الرهبان يقومون بتأجير منازلهم فى جميع انحاء المدينة للعاهرات » ·

ومن الصعب التأكد من درجة تعليم النبلاء الفرنجة · ويبدو أن

الشرائح العليا من النبلاء كانوا متعلمين وقد كتبوا بعض مؤلفات قليلة ، وبعض الشهادات التى توضح أن مستواهم التعليمى كان مساويا لمستوى أقرانهم الأوربيين · ونعلم عن الاحتفالات التى كانت تمثل فيها مشاهد من ملحمة آرثر والقصص الخرافية الشائعة فى أوربا · ولكن هناك شك حول ما اذا كانت نفس درجة التعليم متوفرة لدى الشرائح الدنيا من النبلاء ، وبالمثل ، فان معلوماتنا قليلة جدا عن الاهتمامات الثقافية للنبلاء · ويبدو أن عددا قليلا جدا منهم كانوا يهتمون بالتراث الشرقى الفنى المحيط بهم ، كما أن قليلين منهم اتقنوا اللغة العربية التى كانت اللغة الشائعة فى الشرق ومفتاح كنوزه · وعلى العموم ، يبدو أن هذه السلالة الأوربية التى تربت فى الشرق لم تكن لها اهتمامات ثقافية كبيرة ·

ويتأكد قصور الاهتمامات الثقافية بالحقيقة القائلة بأنه لم تنشأ فى المستعمرات الصليبية مراكز للدراسة أو مراكز ثقافية أو مدرسة أو جامعة وذلك فى عصر كانت كل المراكز الأوربية العظمى تزخر بالكليات والجامعات · وكان الذى يرغب فى تعليم أرحب أفقا يذهب الى أوربا ، على نحو ما فعل مؤرخ المملكة الوحيد وليم الصورى ، الذى كان واحدا من البولان واحتل مكانته بين أكبر مؤرخى العصور الوسطى · وهذه الظاهرة فى حد ذاتها تشرح السبب فى أن المستعمرات الصليبية لم تصبح أبدا معابر بين الشرق والغرب ، على الرغم من أن هذه المستعمرات ظلت على مدى مائتى عام طلائع أوربا فى شرق البحر المتوسط ·

وثمة استثناء واحد كبير فى المستوى المنخفض فى مجال الفكر والروح ، وهو الاهتمام الخاص للنبلاء بالقوانين العرفية للمملكة ، أى القانون الاقطاعى كما كان يمارس فى بيت المقدس وقبرص · وكان النبلاء الوطنيون هم المفسرين الرئيسيين لهذا القانون ، وعلى الرغم من أنه يبدو أنه كانت لديهم بعض المعرفة بالقانون الرومانى ـ بالقدر الذى

يكفى للاقتباس منه على الأقل ـ فان قانون المملكة كان قانونا عرفيا ينتمى الى العصور الوسطى · وكانت سيطرتهم على الموضوع محكمة بحيث ان بعض مؤلفات المشرعين الصليبيين بقيت فى الأعمال القانونية الأوربية · وكلها تقريبا كتب تحوى نصـــوص القانون الاقطـــاعى وظلت تستخدم ويقتبس منها حتى عصر الثورة الفرنسية حين حل القانون الجديد محل القـانون الاقطاعى · وعند قـراءة مقالات جـان الابيلانى Jean d'Ibelin أو فيليب النوفارى Philip of Novara يتأثر المـرء بصيحة الفرح التى يطلقها أولئك المشرعون وهم ينكبون على معالجة دقائق وتفاصيل القانون وتفريعاته وحالات التطبيق الممكنـــة ـ وهى نوع من المعالجة الحصيفة المأثورة لدى اللاهوتيين المدرسيين · ويبدو أن هذا الاهتمام بالقانون قد احتوى كل الطاقات الثقافية للنبلاء الصليبيين اذ كانوا يتعلمون القانون وهم فى طـور الشباب بحضـــور المقابلات فى البلاط الملكى أو بلاطات الأمراء ، وخلالها يلقنهم الكبار المبادىء القانونية · بل ان الشاب منهم كان يتعلم تقاليد البلاد القانونية أثناء احدى الحملات العسكرية · وليس اقل اهمية من الاهتمام بالقانون السابق الاشارة اليه حقيقة ان المقـالة القانونية غالبا ما كانت تكتب كدليل على كيفية التحايل على القانون ، وهى ممارسة فى الدقائق لا تهتم بتحقيق العدالة بقدر اهتمامها بكسب القضية · ولا يبدو ان مثل هذه الأنشطة كانت تناسب النبيل الفارس ، الوربث الجـدير بفرسـان المـائدة المستديرة أو لرفاق رولان Roland . ويمكن للمرء أن يقول أنه اذا كان النبلاء الصليبيون لم يتأثروا بجراثيم الفلسفة اليونانية ، فانهم على الأقـل ادركوا مواهب الشرق وقد يكون ذلك حكما طائشا الى حد ما اذا ما تحقق المرء من أن هذه الدراســـة للقانون كانت ترتبط بحاجة النبـــلاء الأســـاسية الى تأمين « حرياتهم وحقوقهم الانتخابية » التى كانوا يرون فيها أمرا يرتبط بالحرية الدستورية فى المملكة ·

واذا كان بمقدور النبلاء الفرنجة أن يتتبعوا شـــجرة نسبهم حتى

موطنهم الأوربى ـ وأن لم يكن أحد البيوتات الشهيرة فى العالم المسيحى ـ فان سكان المدن على الرغم من القابهم لم يكونوا من سلالة سكان المدن الأوربية · أما الطبقة الدنيا من الجماهير الفرنجية فقد كانوا فى غالبيتهم من سكان الريف ، وقد تركوا أوربا ، اما برفقة احدى الحملات الصليبية ، أو كجزء من موجة من موجات الهجرة ، وكانت هذه الطبقة من المجتمع هى التى تؤلف غالبية السكان الفرنجة ، ولم يكن التحول من حياتهم الريفية والتقلب فى الوظائف أمرا هينا · أما الصناع والحرفيون الوطنيون الأصليون سواء من المسيحيين الشرقيين أو المسلمين ، فقد كان فى مقدورهم أن يقدموا منتجات تتفوق كثيرا وتتوافق مع الحاجات المحلية · ومن المؤكد أن منتجاتهم كانت أكثر رقيا من أى شىء ينتج فى مشاغل الضياع الاقطاعية فى أوربا · وعلى أية حال ، فان سكان المدن كانوا يتمتعون بأنهم قادرون على انتاج البضائع التى تلائم الذوق الأوربى وابتكار الانماط التى يقبل عليها المستوطنون الجدد فى سهولة · كما انهم كانوا يتمتعون بحقيقة ان المهاجرين الجدد يفضلون أبناء جلدتهم · الا أن هذه الميزة كانت سريعا ما تختفى فى مواجهة منافسة الأسعار المحلية ·

كانت هذه الطبقة من المهاجرين هى التى تؤلف الطبقة الوسطى فى المجتمع الجديد من الحرفيين والتجار وهى وظائف نادرا ما كانت متميزة · وكان هؤلاء يلبون حاجة المجتمع الى الحائكين وصناع الاحذية ، والصاغة والنجارين والحدادين والطحانين والطباخين والخبازين ، والحلوانية وصناع الشموع · وفى الموانىء والأماكن الساحلية ظهرت وتطورت حرف تزويد السفن بالمؤن التى تكفيها طوال رحلة الأسابيع الثلاثة الى أوربا · كما ظهرت حرف أخرى جديدة مثل المكارية وسائقى الجمال والسقائين ، وباعة التوابل والبخور والعطور ، كما كان من الطبيعى أن تظهر حرف الادلاء وبائعى الذخائر المقدسة ، والخمارين ، وكان أصحاب الخمارات معروفين فى شتى أنحاء العالم

المسيحى · وكان الحجـــاج والمهاجرون يشكون دائما من وقوعهم فى براثن المحتـــالين · وكانت بعض الحانات ، التى تستخدم كفنـادق فى الموانىء وفى مراكز تجمع الحجاج ، تستخدم أيضـــا كبيوت للدعارة ، وفى هذه الاماكن ازدهرت حرفة الدعارة والمقامرة بالنرد مما أدى الى انتهاك حرمة أولئك الذين جاءوا سعيا وراء التوبة والمطالب الروحية ·

ومن ناحية أخرى ، كان سكان المدن يحتلون مراتب الوظائف الدنيا فى المملكة ســـواء فى المدينـــة أو فى الادارة الريفية التابعـــة للسيد الاقطاعى · وكان بعضهم على قدر من الالمـام باللغـة العربية يمكنه من العمل كترجمان ، على حين كان البعض الآخر ، الأكثر تعليما ، يشغلون وظائف الكتبة أو كتبة الشـــكاوى (العرائض) · ويمكننا ان نتصورهم يجلسون بجـوار اماكن اقامة السيد أو الأســـقف ، ومعهم مناضدهم ، وزجاجات الحبر وريشهم وشرائط الرق يدبجون الطلبات المتواضـــعة للناس البسطاء ، ثم هناك الواجبات الادارية المنتظمة · اذ كانت كل من المؤسسات الاقطـــاعية والكنسية تحتاج الى النظـــار لادارة الضياع والاشراف على الخدم وعند بوابات المدينـة وعلى مدخـل الموانىء كان هناك مجموعة من الكتبة وجباة الضرائب ورسوم الجمارك يقومون بهذه الواجبات وسط ضجيج المساومة والمهاترات ·

وكان ســـكان المـدن يستأجرون الأركان والسقائف والدكك التى يبيعون عليها من سيد المدينـة أو من المؤسسة الكنسية ليستخدمونها فى أسواق بيت المقدس الثلاثة وفى أســواق انطاكية وطرابلس وعكا · وفى السوق كانوا يبيعون بضائعهم ، وثمار حدائقهم والفواكه أو المنتجـــات المشتراة من الريف لكى يعاد بيعها الى سكان المدينة · كذلك كان هناك صرافو النقود من سكان المدن · وغالبا ما كانت هذه المهنة ترتبط باقراض النقود ، كما كانت هى أول مهنة يحتك بها الفرنجى فى عالم المـال ، أمـا الأنشطة المالية العليا فقد كانت بعيدة عن متناوله لأن الظروف التاريخية

ابان الفترة الباكرة من الغزو الصليبى جعلت من الميدان احتكارا حقيقا للتجار الايطاليين (ثم البروفنساليين والكتلان فيما بعد) ٠

واذا ما بدأنا بالحملة الصليبية الأولى وبالعقد الأول من حيـــاة المملكة على وجه الخصوص، حين كان الصليبيون يقاتلون القوى الاسلامية من صقلية حتى البحر الأحمر ، كانت أســـاطيل البندقية ، وبيزا وجنوه ـ أكبر متاجر أوربا ـ أساسية ولا غنى عنها فى غزو المدن البحرية فى سوريا ولبنان والأرض المقدسة ٠ وقد طلب الايطاليون ، الذين تحركوا بمزيج من الدوافع والمثل الدينية والحسابات المادية ٠٠ طلبوا مكافأة عن خدماتهم ٠ والاعـلان الدينى بأن هـذه الأساطيل قد ابحرت الى الشرق لكى تخوض حربا مقدسة وفى خدمة المسيحية لم يمنع ان تضمن هـذه الأساطيل لنفسها نصيبا من الغـزو ليس فقط فى النهب السريع ، الذى لم يكن تجنبه ممكنا ، ولكن أيضا فى الأرباح الأكثر دواما فى شـــكل الحصول على شوارع أو احياء فى المـــدن واعفاءات ضريبية وجمركية وامتيازات الحكم الذاتى والحصـــانة فى حكم مواطنيهم والحفاظ على املاكهم ٠ وهكذا فان كل مدينة فرنجية رئيسية فى شرق البحر المتوســـط ـ باستثناء مدينة بيت المقدس ـ كانت كلها مدنا بحرية وكان يوجد بها عدة شوارع أو شارع واحد على الأقل ينتمى الى أى من الجماعات الايطالية المختلفة ٠ وكان الايطاليون يشكلون الطبقة الثالثة المميزة بين الفرنجـة (الى جانب النبلاء وسكان المدن) وكان وجودهم اضافة الى ذلك الاختلاف فى الأوطان والمزيج من اللغات ٠

ولم تنشـأ المستوطنات الايطالية مباشرة بعد الغـزو اذ لم يستقر هناك سوى عدد قليل جدا من التجار فى السنوات الأولى من عمر المملكة ولكن نواة النشاط الادارى من الموظفين الذين تم أرسالهم من المدن الايطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها أصبحت شكلا ثابتا منذ ذلك الحين حيث كانت بمثابة موضـــع للقدم ٠ الا أن مستقبلهم كان يعتمد على قدرتهم على

استخدام الاملاك فى انطاكية أو صور أو عكا كقاعدة لأعمالهم التجارية · ولم يكن الواقع مطابقا لتطلعاتهم · وذلك لأن المدن الصليبية الكبرى لم تكن مراكز للانتـــاج ، ولا يمكن مقارنتها بالقسطنطينية أو الاســـكندرية · كما أنها لم تكن متنفسا لبلاد داخليـــة غنية · ومن ثم لم تكن التجـــارة الأوربية بقادرة على اقامة علاقات مباشرة مع هذه المراكز الاســـلامية أو البيزنطيـــة · ومع ذلك ، فان الوضـــع المميز لجماعات المستوطنات الصليبية قد عوض العقبات الاقتصادية الواضحة ، فعلى ســـبيل المثال كانت الاعفاءات الضريبية التى تتمتع بها هذه الجماعات التجارية تجعل من المراكز الصليبية محطا مثاليا للتجـــارة المستوردة من داخـــل البلاد الاسلامية ـ مثل الموانىء الحـــرة فى البحر المتوســـط فى العصـــور الوسطى · ومع نمو حجم التجـــارة وارتياد الأراضى الاســـلامية فى عمقها ، بدأ التجار الايطاليون ، الذين كانوا يستخدمون الموانىء الصليبية كمجرد محطـــات على الطريق ، يطيلون مـــدة اقامتهم فى شرق البحر المتوسط ، وقامت جماعات معقولة الحجم من التجار الايطاليين باستيطان جميع الموانىء الرئيسية فى الكيان الصليبى فى الشرق ·

وكانت الكوميونات ، كما اطلق على مثل هذه الجماعات المستوطنة ، عالما غريبا ؛ اذ كانت نوعا من المستعمرات داخل المستعمرات ، فهى أقلية تحيط بها أغلبية ناطقة بالفرنسية · وقد استخدم الايطاليون وأســـاءوا استخدام « اللغـــة الأجنبية » ، كمـــا فعـــل غيرهم فى اتصالاتهم مع رفاقهم الفرنجة · ولكن داخل أحيائهم وفى الساحة ينتقل المرء الى ايطاليا المحبوبة ، فاذا ما تم لهم الحصول على بضـــاعة من أحد البيزنطيين أو المسلمين ، غالبا ما يكون العمل بين الايطاليين أنفسهم · وهنا يتحدث كل بلهجته الخاصة ، سواء أكان من البندقية أو تسكانيا أو ليجوريا · وكان الموثقون يكتبون باللاتينية أو بفرنسية القرن الثالث عشر فى بعض الأحيـــان ، ولكنهم كانوا يفكرون على الطريقـــة الايطالية · وكانت كل الظروف مواتية لتساعد الايطاليين على الاحتفاظ بهويتهم · وكان السيد

الأعلى للكومون ليس فقط مجرد أحد سكان الحى · ولكنه كان أيضا المالك لكل الممتلكات الحقيقية داخل نطاق الكومون · وقد تحولت المبانى الكبيرة المتألقة التى كانت يوما ما سكنا للحاكم المسلم أو البيزنطى أو التركى ، وكذلك البيوت التى كانت ملكا للارستقراطية التجارية المسامة فى المدينة ·· كل هذه تحولت الى قصور فى قوائم الجرد الايطالية واستولت عليها ادارة الكومون ، أما المبانى الكبيرة جدا التى لا تنفع لغرض عملى فقد كانت تقسم الى غرف تؤجر لفترات محدودة ، والى محلات لتخزين البضائع · وكانت تظل خالية طوال معظم العام ولكنها كانت تمتلىء الى نهايتها حين يصل أسطول من أوربا قرب عيد الفصح ·

وأصبح الشارع الرئيسى أو الميدان الرئيسى فى المدينة هو السوق حيث كانت البيوت المحيطة بها تضم عادة بعض الحوانيت والسقائف والمحلات حيث تنتظر البضائع الشرقية دورها فى التصدير الى أوربا ، أو حيث تعرض البضائع المستوردة من أوربا فى انتظار المشترين · وكان التجار يسكنون فى الأدوار العليا · وكانت الحانات والفنادق التى تقدم الوجبات على الذوق الايطالى تنتشر فى كل مكان · وبالاضافة الى ذلك كانت هناك المناضد التى أقامها صرافو النقود وبائعو الأطعمة · والى جانب الدكاكين والمحلات كان هناك مكان للسوق والبازار المغطى ، وكان لكل حى مخابزه الخاصه ، وأفرانه وحماماته · وكانت بعض العائلات الايطالية العاملة فى المال والمصارف ترى أن من المناسب فتح فروع لها فى المدن الصليبية · وكانت العائلات التجارية المصرفية ترسل أفرادا من الأسرة التجارية الى فلسطين للقيام بالأعمال المالية الكبرى التى كانت ما تزال أعمالا تقوم بها العائلة ·

وكان مركز الحى هو البلاتزو أو قصر الكوميون الذى يقيم به من يديرون شؤونه ففيه يسكن القنصل أو الفيكومت Vicomte وهو حاكم مرسل من المدينة الأم · ويدعمه مجلس فى تمثيله لمصالح الكوميون لدى سيد المدينة أو الحاكم أو الملك وهو الواسطة بين الكوميون والسيد أو

الحاكم أو الملك ، كما أنه مسئـول عن ادارة ممتلكات الكوميون والحفاظ على امتيازاته فى المدينـــة ، وكان على الموثقين التابعين له أن يقوموا باعداد الاتفاقيات بين التجار ، وعقود الزواج ، وكان على المحلفين أن يجلسوا للحكم أو للفصـــل فى القضـــايا التى تخص مواطنيهم ، وقد يصدرون أحكامهم فى بعض القضايا على الآخرين من سـكان الحى · وكانت الجرائم التى يعاقب عليها بالموت كالقتل والاغتصـــاب تستثنى أحيانا من هذا النظام ويقوم حراس السلام المأمورين بالقبض على المتهم ويحيلونه الى السلطات العامة ، وكانت تحدث دائما بعض المشاجرات فى مثل هذه القضايا لأن الايطاليين كانوا بطبيعة الحال لا يرغبون فى أن يسلموا أحدهم الى سلطات خارجية · ولم يكن قانون المحاكم الكوميونية هو نفسه القانون المطبق فى المملكة ، وانما كان هو القانون السائد فى المدينة الايطالية الأم · وكانت الاجراءات تتم بلغة التجار الوطنية ، كما كانت اجراءات التنفيذ معروفة من الوطن الأم فضلا عن ان الاحكام كانت تتم بواسطة أقرانهم · وكان لرئيس الكوميون جهازه المساعد من الكتبة والمأمورين · وكان مسؤولية الكتبة تنحصر فى جرد ممتلكات الكوميون كما كان مأمورو المدينـة يعلنون مراسـيم مجلس الكوميون ويشرفون على تنفيذها · ومن آن لآخر كانت تصدر المراسيم التى تحظر ممارسـة الدعارة والقمار ، ولكن فى مثل هـذه الجماعات التى تتكون من التجار الرحل ، لم تكن مثل هذه المراسيم ذات تأثير حقيقى ·

وعلى الرغم من أن المدن الايطالية الأم جنت بعض المكاسب من هذه المستعمرات،فان دخلها الرئيسى من عالم الشرق الأوسط كان يأتى بطريق غير مباشر عن طريق فرض الضرائب الجمركية على أولئك التجار الذين اثروا من تجارة شرق المتوسط فى ايطاليا · بيد أن مثل هذه المزايا غالبا ماكانت تصبح عبئا اذا كانت الكوميونات تدخل فى منافسة حرة فى البر

والبحر · وكان كل منها يحارب الآخر فى سبيل الحصول على الامتيازات والأكثر أهميـة من ذلك أنهم نقلوا المنافسة التجـارية من ايطاليا الى عالم شرق البحر المتوسط · وعلى مدى أكثر من جيل خلال القرن الثالث عشر ، كانت أية مواجهة بين الاساطيل الايطالية القوية تنتهى اما بالقتال أو القرصنة على حيـن كانت أسوار عـكا وصور تردد أصداء ارتطـام القذائف الحجرية · وكانت الأحياء الكوميونية تحيط نفسها بحزام من الأسوار المحميـة بالأبراج المحيطة حين تصبح الأحيـاء المجاورة أرضا للعدو · وفى مثل هذه الأحوال يصبح التاجر محاربا كما كان كل مسافر بالبحر يصبح بحارا ·

وعلاوة على ذلك ، كانت السفن والامدادات المرسلة من ايطاليـا تضيف رعب الحصـار البحرى الى القتـال الدائر بين الاخـوة داخـل أسوار المدينـة · وغالبا ما كانت الأبراج والأسوار تنهار وتحرق البيوت وتدمر ، ويحمل عمود حجرى من الانقاض الى المدينة الأم فى ايطاليـا لكى يزين الميدان الرئيسى · وهكـذا كانت مدن الشرق فى الغالب تصبح صورة مصغرة للحياة فى ايطاليا نفسها ·

أما المستوى التعليمى بين الايطاليين ، فمن المؤكد أنه كان أعلى منه بين الفرنجة فى المتوسط · وكان هذا هو الوضع أيضا فى أوربـا ولكن المقارنة تصبح حقيقة أكيدة فى أوساط التجار العالميين فالمراسلات والحسابات كانت جزءا من العمل التجارى اليومى ، كما كانت المعرفة بالجغرافيا والاقتصاد متقدمة بشكل يثير الدهشة اذا حكمنا بالكتيبات التى خلفها لنـا التجـار أو بالاختراع الجـديد البورتولانى Portolani وهو عبارة عن خرائط بحرية لتسهيل الملاحة ·وبينما كانت الحرب تتمخض عن قدر قليل من المعرفة بالعدو وأرضه ، فان التجارة كانت تخلق حلقات متصلة من اسكندنافيا حتى الصحراء ، ومن أسبانيا الى بـلاد مـا بين

النهرين · ومع منتصف القرن الثالث عشر من فارس الى الهند والصين · ولم يكن الايطاليون على معرفة نظرية بالبلاد والأراضى فحسب ، وانما كانت لهم أيضا معرفة عملية بالطرق عبر الجبال والوديان والصحارى وفوق مياه الأنهار والبحار · كما أنهم طوروا معرفة دقيقة بوسائل الانتاج والبضائع التى تشترى أو تباع والضرائب والجمارك التى يجب دفعها فى الموانىء الأجنبية · فضلا عن أنهم كانوا يتمتعون أيضا بمعرفة العملات النقدية وقيمتها المعدنية وأسعار الاستبدال حول العالم ·

وغالبا ما كانت الأحياء الكوميونية تصبح مستودعا لمثل هذه المعارف التى كانت تتداول شفهيا ، ثم تدون وتجمع فى كتيبات لتصبح دليلا لتعليم الجيل الجديد بأساليب فن البيع والشراء والقروض والشؤون المالية · وقد يرسل الشاب الايطالى الى سوريا أو أرمينيا أو القسطنطينية لكى ينال تدريبه · وقد يستقر حينذاك فى أحد هذه الأماكن ويتاجر لحسابه واذا لم تلح له فرصة الزواج أثناء اقامته فى شرق البحر المتوسط ، أو اذا لم تتوج محاولته بالنجاح ، فقد يعود الى وطنه الأصلى بحثا عن عروس ودوطة ، وهى كانت تدفع عادة فى صورة توابل لا تقبل التلف مثل الفلفل الأسود أو فى صورة أحجار كريمة · وفى بعض الأحيان ، كانت بعض العائلات الايطالية التى لا ترتبط بموطنها الأصلى برباط قوى تضرب بجذورها فى تربة الشرق وتصبح أسرة عريقة هناك · ومن الدكان الى السوق ، أو من البنك الى الدكان كانت حياة الايطاليين دائما تمضى بين أبناء جلدتهم ، بل أن الكنيسة فى الحى كانت ترتبط ارتباطا جزئيا بالنظام الكنسى المحلى ، ولكنها تعتمد على الكاتدرائية فى الوطن الأم ؛ اذ كان القسيس والشماسون يرسلون من البندقية أو جنوه أو بيزا ، وكان الايطاليون أو البروفنساليون يخاطبون القس بلغته الوطنية الدارجة ، كما كان قداس الأحد يتم باللغة التى يفهمها ·

وعلى الرغم من ان سكان الكوميونات كانوا مواطنين فى المملكة الصليبية من الوجهة النظرية ، فالحقيقة انهم ظلوا مواطنين لمدنهم الأوربية الكبرى ، وعلى الرغم من أن الف رابطة كانت تربط الفرنجة بفرنسا ، فان أحدا منهم لم يكن يعتبر نفسه فرنسيا · ومع ذلك لم يتخل أعضاء الكوميونات عن هويتهم الأصلية · فالاستقرار سويا ساعدهم على الاحتفاظ بهذه الهوية · وكانت هناك أسباب مادية تدفع بالواحد منهم الى الارتماء فى احضان بنى وطنه · فبعد مائة سنة وحتى بعد مائتى سنة من تأسيس المملكة ، كان الايطاليون لا يزالون يتمتعون بنفس الامتيازات التى تمتع بها أولئك الذين شاركوا فى غزو البلاد · ومع أن المرء يستطيع ان يبرر حقوقهم العقارية (لأن كل الممتلكات الفرنجية ليست فى حقيقة الأمر سوى نتيجة للفتوحات التى تمت خلال العقد الأول من عمر المملكة) ، فانه كان من الغريب الى حد ما أن تظل تتمتع بالاعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية على مدى ثمانية أو عشرة أجيال · وهذا الوضع المتميز للايطاليين جعل أية منافسة مع الفرنجة المحليين ، الذين كانوا يدفعون رسوما جمركية كاملة ، أمرا لا يمكن التفكير فيه ببساطة · ولا شك أن هذا الموقف ولد كثيرا من الاحقاد لأنه كان من الصعب تفسير سبب وجوب تمتع الايطاليين بوضع متميز دون اسداء أية خدمات ملموسة للمملكة ·

ومن آن لآخر ، كان حكام المملكة يحاولون التخلص من هذه الامتيازات الفادحة والغائها · وكانت الكوميونات تكافح بدورها عن طريق البابوية (للمحافظة على امتيازاتها) التى كانت لها مصلحة واضحة فى ان تحتفظ برابطة التحالف مع المدن البحرية القوية · وهاجم البابوات حنث الملوك بعهودهم هجوما مريرا ، مهددين اياهم بالحرمان ، وغالبا ما كان الحكام الصليبيون يستسلمون للضغوط · وكان الجنوية ، بحذق أكثر منه كياسة ، يدونون مضمون امتيازاتهم

بحروف ذهبية على نصب ويقيمونه فى كنيسة القيامة ! وكانت الطريقة الوحيدة لسحب امتيازات الكوميونات هى انتزاعها بواسطة القضاء العالى من الكوميونات ومنع بيع المنح أو الأراضى التى يحوزها سكان المدن لهذه الكوميونات · بل انه حتى عند استخدام مثل هذه الأساليب لم تكن المعارضة تحرز الا نجاحا جزئيا ، لأن الزيجات المختلطة كانت تعود على الايطاليين بالأراضى والممتلكات الاقطاعية والمدنية من خلال الوراثة ·

أما عن مدى درجة اختلاط المواطنين من الأصل الايطالى بالفرنجة المحليين فمن الصعب التأكد منها · فنحن نعرف بعض الايطاليين الذين كانوا يبحثون عن العرائس فى أوربا ، الا ان الزيجات مع الفرنجة المحليين كانت شائعة اذ ربما كانت العائلية الفرنجية ترى انه من المفيد لها ان تزوج بناتها الى التجار الايطاليين والبروفنساليين · ولم يكن مثل هذا الاتحاد يعتبر زواجا غير متكافىء بل كان يعنى خطوة أعلى على السلم الاجتماعى والاقتصادى · وقصة التاجر الثرى البيزى الذى تزوج احدى بنات الارستقراطية الفرنجية فى طرابلس لابد انها ترددت فى الأسواق الشرقية ، فللحصول على اذن بالزواج من السيدة الشابة دفع التاجر البيزى الى أهلها النبلاء ما يساوى وزنها ذهبا ! وهكذا استطاعت مائة وعشرون رطلا من الذهب الخالص ان تسقط هذه الحواجز الطبقية ·

وكانت بعض العائلات الأخرى تدخل الحياة الفرنجية ليس عن طريق الزواج وانما عن طريق الأوضاع الاقطاعية فان عائلة من جنوة مثل عائلة اميرياتشى ، التى اجر الكوميون املاكها فى مدينة جبيل ، قطعت روابطها مع المدينة الأم وصارت جزءا من الارستقراطية الفرنجية · وعلى أية حال ، فانه كان من المتوقع ان يستمر أفراد هذه العائلة فى التعاطف مع بنى جلدتهم ومحاباتهم · وعلى مستوى اجتماعى أدنى ، كانت العائلات الايطالية تدخل فى دائرة الطبقة الفرنجية الوسطى من

خـــلال الزيجات علمنا عنهـــا من الوثائق الخاصـــة بالمجادلات القانونية حول ما اذا كان العقد يجب ان يكون وفق العادات المحلية أو الايطالية ٠ ومهما كانت درجـــة التكافؤ فى الزواج ، فقد ظل الايطـــاليون قـــوة فى أنفسهم ، يحافظون على عاداتهم ولغتهم ومؤسساتهم الأصلية فى الأرض المقدسة ٠